أحمد سليمان

من سجل الحركة الشيوعية العالمية وانعكاساتها في السودان

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع
الخرطوم - ص. ب: ١٧٤٧



أحمد سليمان محمد أحمد

- ولد في الرابع عشر من يناير ١٩٢٤ بمدينة أم درمان بالسودان .
- تلقى جزءا من تعليمه بكلية الآداب بالخرطوم، ثم كلية الحقوق جامعة فؤاد الاول بالقاهرة .
- من مؤسسي الحزب الشيوعي السوداني ومن قادة حزب الجبهة المعادية للاستعمار .
- فصل من عضوية الحزب الشيوعي في عام ١٩٧٠ .
- تقلد عدة مناصب وزارية منذ عام ١٩٦٤ فقد كان وزيرا للزراعة والغابات وأستثمار الاراضي والمياه الجوفية فوزيرا للاقتصاد الوطني والتجارة الخارجية ثم وزيرا للصناعة والتعدين وأخيرا للعدل .
- عمل سفيرا للسودان لدى الاتحاد السوفيتي ثم سفيرا بلندن ثم سفيراً لدى نيجيريا . ويشغل الآن منصب رئيس مجلس ادارة سودان رن للكيماويات والاسمدة .

من سجل الحركة الشيوعية
العالمية
وانعكاساتها في السودان

احمد سليمان

من سجل الحركة الشيوعية العالمية وانعكاساتها في السودان

دار الفكر
الخرطوم

الطبعة الاولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م

دار الفكر
للطباعة والنشر
ص.ب ١٧٤٧ - تلفون ٧٦٦٢٠-١ الخرطوم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا
وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »

(صدق الله العظيم)

الإهداء

إلى الذين لا زالوا
في الضلالة يعمهون


مسطورات
MUSTORAT
INTERNET ARCHIVE

بسم الله الرحمن الرحيم

من سجل الحركة الشيوعية العالمية
انعكاساتها فى السودان

طلب مني اخوة اعزاء من جماعة الفكر والثقافة الاسلامية أن أسهم في أعمال ومداولات موءتمرهم الاول عن " الاسلام فى السودان" ببحث عن " الحركة الشيوعية العالمية وانعكاساتها فى السودان "

وما كان لمثلي ،كما سبق ان كتبت فى مناسبة مماثلة ،أن يرفض لمثلهم طلبا . فقد تواضع القوم وطلبوا ممن لم يوءت من العلم الا قليلا أن يخاطب المنتدى الذى جمع أهل الفكر والحجا ، واولي الألباب والنهي . فقبلت شاكرا حامدا . رغم أنني كنت قبلها أتحايل ،وأنا مكره ،وباعذار شتى ،عن تلبية الدعوات الكريمة مثلها والتى ظللت أتلقاها من طلبة نجباء واساتذة اجلاء. وذلك ليس ضنا بزاد قليل تزودته ولا بتجربة نافعة نلتها بعد معاناة وصبر على المكاره والاذى ،وخطى مشيتها فى سبيل قصدتها ، كثيرها كان شائكا وجلها كان جائرا ،وانما خوف أن تزيد افكارى الناس فرقة وانقساما وتثير جدلا يوسع الشقة بينهم ويزيدهم تحزبا وتشبعا . وانا أعلم ان من الناس من حسن ظنه واستيقن انها افكار رجل كان ضالا فهدى . ومنهم من يظن آثاما أنها نزوات رجل تقلب فوءاده حيث شاء من الهوى ،وعبد الشيطان دهرا طويلا فغوى ، وما الدثار الذى ظل يرتديه لعقد من الزمان مضى ان هو الا طلاء لا يستر عورة ولا يحجب زيفا وافتراء ... لذلك كنت قد آثرت البعد والانزواء بالرغم من اقتناعى بأهمية الندوات والموءتمرات كمنابر للتثقيف وتبادل الآراء ... والكل ميسر لما خلق له .

وما أن أمسكت بالقلم الا وقد تبين لى ان الموضوع الذى طلب مني معالجة أمره وهو " الشيوعية العالمية وانعكاساتهافىالسودان" لا يمكن حصره بين دفتى بحث لا تعدو صفحاته العشرين أو اكثر قليلا كما يريد الاخوة الكرام المشرفون على التحضير للموءتمر . ذلك ان بصمات الحركة الشيوعية العالمية وانعكاساتها على السودان بالغة ، وعميقة الغور وخطيرة لا يقف أثرها عند ساحات النشاط السياسى وانما

يتعداه الى كافة مجالات اجتهاداتنا الثقافية والاقتصادية والاجتماعية . فبجانب بصمات أصابعها الواضحة والظاهرة فهناك مخلفات سلبياتها التى كادت أن تفتك بقواعد سلوكنا الكريمة وتسلبنا فضائل تقاليدنا الحميدة وتتغول على قيمنا الرفيعة .

لكل ذلك استبحت لنفسى ،ملتمسا المعذرة ، أن أحور قليلا فى عنوان البحث ليكون اكثر تواضعا واكثر تطابقا مع حقيقة ما تحتويه صفحاته .

وبالرغم من تواضع البحث وعدم شموليته فانه لا زال طويلا ومتشعبا وربما كان شائكا .

طويلا لانه لابد له من تتبع مسار الحركة الشيوعية العالمية التى لم تعد حركة يافعة كما كان حالها عند تأسيس الكومنترن واجهتها الدولية الاولى .

ولانه لابد ان يتناول البحث مراحل نمو الغرس الشيوعى فى السودان بوصفه اداة الشيوعية العالمية ووجهها المحلى منذ ان اخرج شطوءه وظن الرفاق أنه قد استغلظ واستوى على سوقه الى أن اصفر وصار حطاما وهشيما .

ولانه لا مناص من التعرض ولو بقدر يسير ولكنه متيقن،لتاريخ الحركة الشيوعية فى مصر ولبعض مواقف الحزب الشيوعى البريطانى وذلك للصلة الحميمة التى كانت قائمة بينهما وبين الحركة الشيوعية فى السودان ،ولخصوصية العلاقة بيننا وبين البلدين ولان الكثيرين يجهلون الصلة الوطيدة بين الحزب الشيوعى البريطانى والكومنترن وأثر ذلك على تسريب بذرة الشيوعية الى السودان فى اوائل الاربعينات ،كما يجهلون أيضا دور الكومنترن فى نشأة الحركة الشيوعية فى مصر وأثر ذلك على النبت السودانى الذى لم يخرج الا نكدا .

والبحث متشعب لان الحركة الشيوعية العالمية لم تعد حركة موحدة كما كان شأنها قبل انسلاخ يوغسلافيا من حظيرة الكومنفورم فى النصف الثانى من الاربعينات وقبل الخصومة التى اضطرم اوارها بين موسكو وبيكين فى النصف الاول من الستينات وقبل ظهور ماعرف اخيرا باسم الشيوعية الاوربية .

ولان واجهات الحركة الشيوعية العالمية كثيرة ومتعددة وأساليبها ماكرة متجددة .

ولان الشيوعية عقلا شيطانيا لا ينضب معينه رغم ما يكبله من أصفاد الحديد ،ورحما خصبا يلد كل يوم جديد رغم الوهن الذى أصابه ورغم ما اعتراه من صديد .

والبحث شائك لانه لا يستقيم دون الاشارة الى بعض العوامل التى تيسر مهمة الاخطبوط الشيوعى ومنها الغفلة والسذاجة السياسية التى عليها بعض الحكومات التى لم نكن نحن استثناء منها يوم أن فتحنا أبواب بلادنا للشيوعية العالمية وأسهمنا فى تحسين العلاقات وتوطيدها بين السوفيت وتوابعهم وبين بعض الدول الافريقية الشقيقة والتى عليها الان بعض الدول التى تجاورنا وتحادنا والتى يصح فيها قول الشاعر . '

ولا يعرفون الشر حتى يصيبهم .. ولا يدركون الامر الا تدبرا

والتى لم تستوعب الدرس وتستفيد من تجربتنا المريرة مع الشيوعية العالمية ورأس رمحها الاتحاد السوفيتى وما أصابنا منها من غم وهم ونكد ،وما لحقنا منها من أذى ووجد وفقد زلنا نعانى من مغبتهم جميعا .

ولتيسير البحث وتبسيطه دون اخلال رأيت أن اجزأه الى ابواب اربعة ،يتحدث كل منها عن فترة تاريخية بعينها ،ولكنى لم آشا ان اشير لكل باب صراحة بل جعلت الفترة تلج فى أختها وتعقب كل منها الاخرى دون مهلة أو تراخ أو فاصل قلمى . تبدأ بانتصار ثورة أكتوبر الشيوعية وقيام الحكم البلشفى فى روسيا وتأسيس الدولية الثالثة التى يطلق عليها اسم الكومنترن .

وثانيتها من حيث انتهى الكومنتيرن الى بداية تفجير ثورة مايو بالسودان .

وتبدأ الثالثة من حيث انتهت الفترة الثانية وتقف عند منتصف عام ١٩٧١ .

ونفرد الباب الرابع والاخير للحقبة التاريخية التى نعيش احداثها اليوم والتى أعقبت اجهاض محاولة الشيوعيين الاستيلاء على السلطة فى البلاد بعد أن ظنوا طيشا وغرورا ،أنهم قادرون عليها .

ولكن وقبل أن نطرق أول تلك الابواب وقبل أن نولج الساحة لابد من وقفة قصيرة واتكاءة عند موقع السودان الجغرافى والاستراتيجى والذى يجعله يحتل مكانا مرموقا فى خريطة أطماع

الشيوعية الدولية التى ستظل ترنو اليه بأبصارها وتحيطه باهتمامها الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

فالسودان القارة يتميز بموقع جغرافى فريد . حيث تحتل أرضه مساحة فى داخل افريقيا تجاور المليون من الاميال المربعة ،تمتد من البحر الاحمر شرقا الى حدود شاد غربا ومن تخوم خط الاستواء جنوبا الى حدود مصر وليبيا شمالا ،وحيث يتصدر القارة غير باغ ولاعاد باسط ظله الوارف المديد . ويقبع وسطها باسط يديه كالمارد ذى البأس الشديد ،قد من صخر وحديد . ويجلس كما الحارس الامين باسط ذراعية بالوصيد . وحيث يعبر نيله الخالد التليد الفيافى والقفار، والوديان والجبال والسهول والرمال ،يبسط الرزق ويغرى بالهجرة والانتقال ،وييسر التمازج والاتصال بين الاصول الحامية ،الزنجية والنوبية ،بعضها البعض ،وفيما بينها وبين الساميين والعرب .

ولعل السودان خير مثال بين الامم لوحدة التنوع والتعدد فقد أهله موقعه المتميز ونيله المتعدد المنبع والروافد لان يكون محل التقاء الحضارات الفرعونية والزنجية والمسيحية والاسلامية ولان يكون تجسيدا حيا لحصيلة التفاعل بين الزنج والعرب ومثالا ملموسا للتكامل الاقتصادى والثقافى بين أقاليم جنوب الصحراء وشمال خط الاستواء .

والسودان الواسع الممتد ،متنوع السلالات والاصل والمحتد ،له حدود مفتوحة وطويلة مع ثمانية من الدول الافريقية وهو يطل على السعودية حيث منابع الزيت وحقوله . ويحتل مكانا له وزنه الدولى حيث انتماوءه الى أسرة الدول الافريقية والى مجموعة الدول العربية .

والسوفيت طليعة الشيوعية الدولية ،لا يجهلون بالطبع تلك الحقائق . فهم يعلمون أن السودان موءهل بنسبه وأصله وتاريخه وموقعه لأن يلعب دورا بارزا وخطيرا وسط العرب والافارقة على السواء . وانه إن كان قيامه بذلك الدور قد تعسر فيما مضى فانهم قادرون ، ان تيسر لهم وضع أقدامهم من جديد على أرضه ، ان يحركوا كوامن عوامل قوته بما يخدم أغراضهم ويحقق اطماعهم فى القارة البكر وفى بلاد العرب التى تزخر بالخيرات الكثر التى تبطنها أرضها ويدثرها بحرها ،وبما يعيد لهم نفوذهم وموقعهم السياسى الذى فقدوه فى مصر نتيجة طيشهم ونزقهم وغرورهم وسوء تقديرهم .

وبما ان واجهات الحركة الشيوعية العالمية تكاد تكون كلها عن صنع السوفيت وخلقهم ونسلهم ،وبما ان التطابق يكاد يكون تاما بين أهدافهم وواجبات تلك الواجهات فأن البحث سيركز على تتبع مسار السياسة السوفيتية ومدى أنعكاسها على السودان علما بأن تلك السياسة ذات ثلاث شعب ،تخاطب كل منها السودان بلسان يناسب صفاته الثلاث ،كبلد مستقل ،وكوطن أفريقى وكجزء من كيان العرب .

ولعل من نافلة الحديث القول أنه لم تكن هناك مبادرات سياسية من الدولة السوفيتية فى أيام نشأتها الاولى تتصل اتصالا مباشرا بالسودان حيث كانت الدولة الوليدة مهتمة بترتيب شئونها الداخلية وبتوطيد دعائم سلطتها الجديدة ،وحيث لم تكن ثمة واجهات للشيوعية العالمية تنطق بلسانها وتعبر عن حالها ،او موءسسات دولية تسير على دربها وتتكيف على هدى توجيهاتها .

ولذلك فأنه يمكن الزعم بأن السودان فى السنين الاولى لثورة أكتوبر الروسية كان فى مأمن من تأثيرات البلاشفة المباشرة مثله فى ذلك مثل كثير من البلاد العربية والافريقية ،اللهم الا فيما يختص برد الفعل العام لنجاح الثورة البلشفية وماصدر عنها من أفعال وتصرفات تمس الحياة فى المنطقة التى يشكل السودان جزءا منها ، وإن كان المس وقتئذ رقيقا خفيفا وهامشيا .

نقول هذا رغم أن أول فعل صدر من البولشفيك فى ساحة العلاقات الدولية كان ذا صلة بالعالم العربى اذ بادرت الحكومة البلشفية بزعامة لينين وبعد أقل من خمسة أشهر من انتصار ثورة اكتوبر بل وقبل توقيعها لمعاهدة الصلح المنفرد مع الالمان فى برست ليتوفسك بما يقارب الاسبوعين وبالتحديد فى الحادى والعشرين من فبراير من عام ١٩١٨ بادرت بفضح أمر معاهدة سرية أبرمت بين بريطانيا وفرنسا فى عام ١٩١٦ عرفت باسم معاهدة سايكس بيكو نسبة لاسمى وزيرى خارجية البلدين الذين وقعاها ،البريطانى مارك سايكس والفرنسى جورج بيكو . وكان الوزيران قد أشركا روسيا القيصرية فى تلك المعاهدة التى تقرر بمقتضاها تقسيم المناطق التى تخضع لنفوذ تركيا بين بريطانيا وفرنسا بعد الهزيمة المتوقعة للامبراطورية العثمانية والتى تمثلت ارهاصاتها فى دخول قوات

اللورد اللنبى أرض فلسطين وتدنيس أقدامها لحرم القدس الشريف .

وقد أمر لينين بنشر نصوص بنود المعاهدة الاستعمارية كاملة وبملحقاتها وكذلك الرسائل المتبادلة بشأنها . وقد أحدث ذلك النشر دويا هائلا وقتها خاصة فى مصر والشام وفلسطين التى كانت من ضمن أهم مراكز النفوذ التى قرر الاستعماريون اقتسامها .

وقد ظل البولشفيك والتابعون الذين تبوأوا الدار والكفر من بعدهم وتابعو التابعين من أمثالنا يشيدون بالدوافع النبيلة التى حدت بالدولة السوفيتية الوليدة لفضح بنود تلك المعاهدة ويزعمون انها بذلك قد أحبطت تدبيرا استعماريا ماكرا وأنقذت الشعوب العربية من مغبة تخطيط خطير لا قبل لهم بدفعه . وظلوا يسوقونها ولعلهم لا يزالون ،كدليل على اصالة دولة البروليتاريا وكشاهد على حسن نواياها وكواقعة تاريخية تثبت جديتها فى التزام جانب الشعوب .

ولم تكن تلك الاتفاقية الاستعمارية فى حقيقة أمرها بالحجم الذى رسمته لها أجهزة الدعاية السوفيتية ولا بالخطورة التى أسبغتها عليها ، فقد ثبت من الوثائق التى نشرت فى بريطانيا بعد ثلاثين عاما من توقيعها أنه كان للانجليز دروب وتخطيطات أخرى وانهم لم يلتزموا بعد نهاية الحرب بنصوصها خاصة فيما يختص بفلسطين وقد وضح ذلك جليا من المكاتبات والرسائل المتبادلة بين سير هنرى ماكمهون المندوب السامى البريطانى فى مصر وبين الحسين شريف مكه حيث التزمت بريطانيا العظمى للعرب ، دون علم حليفتها فرنسا ومن وراء ظهرها ، بمباركة قيام خلافة عربية تحل محل الخلافة التركية فى تلك المنطقة . وقد أشارت الى نفس المعنى كتابات ديفيد لويد جورج الذى كان رئيسا للوزارة البريطانية فى الفترة بين عامى ١٩١٦ و١٩٢٢ . كما أنه لم يكن فى مقدور الدولة السوفيتية على عهد لينين تحقيق أطماعها التوسعية فى المنطقة العربية فقد كانت مهتمة بترتيب شئونها الداخلية وحماية سلطتها الجديدة من اعتداءات الدول الرأسمالية الغربية عليها . ولم تكن المعاهدة قد رتبت لروسيا القيصرية حقوقا يوءبه بها فى بلاد العرب وانما اكتفت بالاعتراف لها ببعض الامتيازات فى مضيق الدردنيل والبوسفور التى لم تكن تعنى شيئا بالنسبة للحكومات البلشفية التى قررت حماية

نفسها داخل حدودها واقامة سياج حديدى حولها .

وقد كان لينين يعلم أكثر من غيره أنه لن يتحقق له نصيب من تلك الامتيازات على قلتها وضآلتها وانه لن يناله شئ من لحومها حتى ولو تستر على المعاهدة والتزم بنصوصها وأمر على تنفيذها بحذافيرها فقد كانت بريطانيا وفرنسا أكثر الدول عداء لنظامه الجديد واحرصها على الاطاحة به . ولعله ، وقد كان حسابا قد وازن بين الامرين ،ولما تبين له أن كفة فضح اسرار المعاهدة هى الرابحة كان التوجيه ببدء الحملة الاستفزازية المناهضة للدول الاوربية والضجة الصاخبة عن آصالة الثورة وعبقرية اختياراتها .

ولضمان استمرارية الحملة وفعاليتها ضد تلك الدول كان لابد من التفكير فى خلق تنظيم ثورى دولى ثابت ومستقر لا يكتفى فقط بالاشراف على النشاط الدعائى المعادى لها وأنما يعمل على نقل المعركة الى داخلها بهدف بعيد ، هو تقويض أنظمة الحكم الرأسمالية السائدة فيها ويهدف قريب وعاجل ، هو مضاعفة همومها الذاتية وحملها الى الانصراف الى معالجة مشاكلها الداخلية والى وقف مساعداتها للقوى المسلحة المناهضة للسلطة البلشفية داخل روسيا .

وقد كان لينين فى أمس الحاجة لمثل ذلك التنظيم حيث كان عليه أن ينصرف الى تثبيت دعائم حكمه وتوطيد قبضة الحزب الشيوعى على زمام الامور فى بلده الواسع وتحت ظروف الثورة المعقدة ...ومن هنا كان التفكير فى بعث الكومنترن من جديد بعد أن مات على أيدى السابقين الاولين من الشيوعيين وشبع موتا .

وبالفعل فقد عقد أجتماع بين ممثلى الحزب البولشفى والحزب الشيوعى الالمانى فى موسكو فى مارس من عام ١٩١٩ أعلن على أثره انشاء الكومنترن أو الدولية الثالثة وكانت أهدافه الرئيسية اثنين اولاها احتضان الاحزاب الشيوعية القائمة فى البلاد الرأسمالية ومساعدتها على جذب الطبقة العاملة الى صفوفها والاخذ بيدها حتى تكون فى حال تستطيع معه الارتقاء بالعمل النقابى الى المستوى السياسى الذى لا يكتفى بتحقيق المطالب الاقتصادية وانما يتخطاها الى تحقيق الاستيلاء على السلطة .

وثانيها الهاب الشعور الوطنى بين شعوب المستعمرات ومحاولة تأسيس أحزاب شيوعية فيهاوقدخص لينين مصر والهند بتصريح أيد فيه نضال شعوبها من أجل الاستقلال ، وقال إن مطلبهما حق وعادل

ينبغى على الطبقة العاملة العالمية مساندته . وتعهد بأن تقدم دولة البروليتاريا الدعم المستطاع .

وكان الحزب الالمانى هو أقوى أحزاب أوربا الشيوعية بعد الحزب البلشفى وكان يتزعمه كارل ليبنخت وروزا لكسمبورج وكان كلاهما من المقربين للينين . وهو ليس ليبنخت الذى حضر مع ماركس الاجتماعات التأسيسية للدولية الاولى وكان من أشد الحواريين تعصبا له وأكثرهم حماسا . وقد اغتيل هو ورفيقته روزا فى نفس السنة التى أسس فيها الكومنترن أى فى عام ١٩١٩ .

وقد سمى بالدولية الثالثة لان خلفاء ماركس كانوا قد انسحبوا من تنظيم الدولية الثانية الذى كان يسيطر عليه نفر من الثوريين الذين كان يتهمهم ، البلاشقة بالانتهازية لانهم لم يسلّموا تسليما مطلقا كاملا باراء ماركس وانجلز ومن بعدهما لينين .

وفى الواقع فان فكرة الكومنترن او الدولية الاولى لم تكن فى الاصل من بنات أفكار ماركس وانما كان هو من ضمن الشخصيات العمالية والثورية التى حضرت الاجتماع الذى عقد فى قاعة سانت مارتن ،بلندن فى عام ١٨٦٣ بمبادرة من العمال البريطانيين والفرنسيين ،وكان الاخيرون قد دعوا لحضور افتتاح معرض الصناعات الحديثة الذى اقيم بلندن فى تلك السنة .

وقد اتخذ ذلك الاجتماع قرارا بتأسيس اتحاد عالمى للعمال كان من ضمن أهدافه انهاء علاقات الانتاج التى كانت سائدة فى ذلك الوقت بين العمال وأصحاب العمل بما يمكن العمال من تملك وسائل الانتاج وبما يكفل لهم التمتع التام والكلى بحصيلة عملهم .

وقد استطاع ماركس رغم أنه لم يكن الداعى لذلك الاجتماع ولم يكن أبرز الشخصيات التى اشتركت فيه أن يبسط نفوذه على الاجتماعات الضيقة والموءتمرات الفرعية التى تلته وذلك بمثابرته وبمتابعته لنضال العمال العالمى وتلخيص تجاربهم . وقد ساعده على ذلك ايضًا خلو الساحة من بعض أعظم القادة الثوريين أمثال لا سال الذى اخطفه الموت وباكونين الذى عجل ماركس بفصله وأتباعه من حظيرة الكومنترن كدأب الشيوعيين فى حسم الصراعات الفكرية والايدولوجية حيث اللجوء للقرارات الادارية مثل الفصل من العضوية ،وللاجراءات الارهابية كالتصفية الجسدية ، وفق ما تتيحه الفرص وما تيسره الظروف .

واستطاع ماركس فى النهاية ان يجعل التطابق كاملا بين أفكار الدولية الاولى وبين الافكار التى جاء بها البيان الشيوعى او المانفستو الذى كان قد أصدره هو بمعاونة فردريك انجلز فى عام ١٨٤٨ ، وقد احتضن الكومنترن شعار المانفستو الرئيسى ودعوته :

" ياعمال العالم اتحدوا "

وبالطبع فأنه لم يكن للكومنترن الذى بعث من جديد فىنهاية الحرب العالمية الاولى صلة مباشرة بالسودانيين . ولكن ربما كانت له صلاته ببعض الأجانب الذين كانوا أول من نظم حلقة لدراسة الماركسية بالخرطوم وكان هوءلاء من الارمن الذين يعتزون بصلتهم التاريخية بأرمينيا الامّ التى هى أحدى الدول التى تشكل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، وكانوا ثلاثة دخلوا السودان فى الفترة مابين عامى ١٩١٧ و ١٩٢٠ هم أرتين اركيان وكان يعمل " ميكانيكيا " بمصلحة الوابورات وبادروس ساهورتيان الذى التحق بخدمة الاشغال العمومية وهو الذى شيد " وابور الماء " بالخرطوم وأنيس ظهريان وكان وكيلا تجاريا " قومسنجى " لترحيل البضائع الواردة للخرطوم والمصدرة منها وكان أول من اتصلوا به من السودانيين عاملا بالمطبعة الحكومية يدعى على احمد صالح المعروف بعلى حاجى والذى اتصل بدوره بسته من أقاربه واصدقائه وكون معهم أول خلية شيوعية بالسودان.والسته هم محمد خير العوض والد الشاعر المهندس ميمان وكان رئيسا للصفيفين بالمطبعة، وحبيب حنا سودانى من أصل قبطى وكان موظفا بمصلحة البريد،والنجار ابراهيم سعيد عبده، والميكانيكى الماظ عبد الله سعد وكان كلاهما يعمل بمصلحة الاشغال العمومية، وفرج الله سعد بقسم التجليد بالمطبعة، وابراهيم موسى العامل بها ايضا .

ويلاحظ أنهم جميعا من العمال ماعدا موظف البريد الذى لم تكن تفصله عن رفاقه فوارق طبقيه يؤبه لها . ولعل فى هذا ما يشير الى أصبع الكومنترن الذى كانت توجيهاته الاولى الى ما قبل بداية تعاظم خطر الفاشية الاوربية فى الثلاثينات تقتضى ان يقتصر " التجنيد السياسى " لصفوف الخلايا التأسيسية للتنظيمات الشيوعية فى بلدان الشرق الاوسط على ابناء البروليتاريا رغم قلة عدد تلك

الطبقة وضعفها ،وعلى الكادحين من أفراد الاقليات المضطهدة كالكرد والدروز علما بأن دعاة الشيوعية الاوائل الذين كلفوا بعملية " التجنيد " هذه كانوا من الاجانب الموسرين وغالبيتهم من الارمن واليهود ٠ وعلما بان المثقفين فى الشرق الاوسط وفى السودان كانوا هم فرسان الحلبة السياسية فى العشرينات ٠

ولعل الحكمة من وراء ذلك التوجيه كانت الحرص على أن تكون اللبنة الاولى فى الصرح الشيوعى فى تلك البلاد قوية متينة وذلك تأسيسا على الافتراض الماركسى بأن الطبقة العاملة هى طليعة الطبقات أشدها صلابة وأقدرها على التجمع والتنظيم ٠ وقد ظل بعض المنظرين السطحيين المتحجرين الذين ابتليت بهم الماركسية أمثال بونا ماريوف سكرتير العلاقات الخارجية فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى وتابع ظله فاديم رومانسييف الذى كان قد عمل فترة كسكرتير ثالث بالسفارة السوفيتية بدمشق ،يزعمون أن السبب فى بقاء الحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان على قيد الحياة وعلى مدى يربو عن نصف القرن ،دون كافة الاحزاب الشيوعية العربية ،هو التزام الاجانب الذين كلفوا ابتداء ببث الدعوة للشيوعية فى أرض الشام بتوجيهات الكومنترن حيث كان من اوائل المجندين السياسيين لتلك الفروع خالد بكداش ،وهو سورى من أصل كردى فقير ،وفرج الله الحلو وهو عامل من جبل لبنان ٠٠٠ وبالطبع فان هذا غثاء وزيف وافتراء اذ ليس ثمة وجود فعال للحزب الشيوعى فى سوريا ولبنان حيث لازالا قزمين رغم بلوغهما الستين من العمر وحيث الضجة المفتعلة حول الحزب وشعاراته وسكرتيرة وحيث التأييد المطلق لمواقف الاتحاد السوفيتى " العظيم " والتسبيح بحمد حزب لينين ٠

وفى السودان لم يكتب للحلقة الشيوعية الاولى الحياة طويلا فقد انفضت واندثرت بعد مبارحة الارمن للسودان وبعد ردة على حاجى اثر تقديمه للمحاكمة فى عام ١٩٢٤ بوصفه احد مؤسسي جمعية اللواء الابيض وقبوله أن يكون شاهد ملك استجابة لوعد السلطة الاستعمارية فى البلاد أو لوعيدها أو للاثنين معا ٠

وربما كان من العسير الاهتداء الى أدلة وقرائن قاطعة تثبت سعى السوفيت وتنظيماتهم الدولية لايجاد موطىء قدم لهم بالسودان فى الفترة مابين قيام الثورة البلشفية وقيام الحرب العالمية

الثانية وذلك لما عرفوا به من مكر وحذر ولضعف امكاناتهم الثورية والدبلوماسية فى ذلك الوقت . وعليه فأنه لا مناص من اللجوء الى الاستقراء والى قرائن الاحوال حيث أن القدر اليسير من المعلومات التى تحصلنا عليه فى هذا المجال لا يشفى الغليل ،ولايمكن ان يعتمد عليه كشاهد حاسم ودليل .

ولعله من المناسب أن أشير هنا الى تقرير اطلعت عليه بدار الوثائق بالخرطوم يحدث عن محاولات سوفيتية ومنذ منتصف العشرينات لبث الدعاية الشيوعية فى السودان ويدلل عليها ببعض الوقائع التى رصدتها أجهزة المخابرات البريطانية فى كل من القاهرة وجدة ومصوع واسمرة وبورتسودان .

والتقرير أعده ادورد عطيه عندما كان يعمل بقلم المخابرات السودانية وقد جعل عنوانه " التاريخ السياسى للسودان بين عامى ١٩٢٤ - ١٩٣١ ". وارجو أن أنقله من الانجليزية بتصرف لا يخل بمضمونه .

يزعم ادورد عطيه أنه تأسيسا على التقارير الصادرة فى عام ١٩٢٦ من دار الحماية -- التى هى مقر المعتمد البريطانى بالقاهرة فان ثمة صلة كانت تربط بين السوفيت وحزب الوفد المصرى وان هذا الاخير قد التزم فى يونيو من عام ١٩٢٥ بالتعاون والمساعدة فى بث الدعاية الشيوعية فى السودان وان الطرفين اتفقا على تشكيل لجنة لرعاية مصالحهما والتنسيق فيما بينهما وكان يمثل السوفيت فيها روسى يدعى دكتور ماركوفسكى ويمثل الجانب المصرى حمدى بك سيف النصر - وكان هذا قد عمل قبلها مأمورا بامدرمان وفى فترة لاحقة لاعداد التقرير وزيرا للحربية فى احدى الوزارات التى ترأسها مصطفى النحاس باشا .

ويقول ادورد ان التقارير كانت تشير الى ان الأمير عمر طوسون كان على علم بمسألة التنسيق بين الوفديين والسوفيت حول النشاط فى السودان وان من الاسماء المصرية التى وردت فى تقارير دار الحماية والتى كانت على صلة بهذا الامر بجانب الامير طوسون وحمدى سيف النصر لبيب باشا الشاهد وحمد باشا الباسل واخوه وفخرى عبد النور وعبد الرحمن بك فهمى،وان من ضمن وكلائهم بالسودان الرابى سليمان ملكه حاخام اليهود بالخرطوم والضابط السودانى

زين العابدين عبد التام.ويضيف ادورد عطيه ان الانجليز بالسودان فشلوا فى ايجاد ما يثبت صحة تلك المعلومات اذ لم تتوفر أية ادلة أو قرائن تثبت الزعم بأن هناك دعاية وفدية سوفيتية مشتركة فى السودان خاصة وان حزب الوفد لم يكن يرغب فى مضاعفة متاعبه التى سببها مقتل الحاكم العام سيرلى ستاك فى عام ١٩٢٤ ٠

ويسترسل ادورد عطيه ويقول إن تقارير دار الحماية كانت تشير الى وجود حزب شيوعى مصرى وان انجليزيا يدعى هـ٠ب ٠ راثبون قد أسهم فى صياغة برنامجه الذى وردت فيه اشارة الى السودان ولكن الحزب عجز عن القيام بأى نشاط يذكر فى السودان خاصة بين عامى ١٩٢٤ - ١٩٣١ حيث كان يعانى من ضربات قوى الامن المتلاحقة ٠

ويزعم ادورد عطيه أن جهد السوفيت لايجاد موقع دعائى لهم فى السودان لم يقتصر على مجرد التنسيق مع حزب الوفد المصرى فقد كانت هناك الوكالة السوفيتية فى جده التى أفتتحت فى عام ١٩٢٤، والتى كان السودان احد محاور نشاطها ٠ وقد خلفت تلك الوكالة القنصلية الروسية التى كانت تهتم قبل نشوب الحرب العالمية الاولى بشئون الحجاج القادمين من بخارى كما كانت تشرف على أعمال الخطوط البحرية الروسية التى كانت تسير خطين الملاحة ابان موسم الحج ٠

ولكن بما ان سيل الحجيج الروسى قد انقطع نتيجة استيلاء البولشفيك على السلطة فقد تيقن الظن بأن المهمة الرئيسية للوكالة هى الاشراف على العمل السياسى الدعائى فى المنطقة وخاصة فى مصر والسودان ٠

ويستطرد ادورد عطيه ويقول إنه حسب التقارير التى أرسلها مندوب صاحب الجلالة البريطانية وقنصلها ووكيلها بجده فى نوفمبر من عام ١٩٢٤ فأن الوكالة السوفيتية قد سربت نشرات شيوعية الى داخل السودان بواسطة احد السكرتيرين العاملين بها ويسمى بلكين كان قد حضر موء خرا من روما عن طريق مصوع والذى اتخذ من جده مركزا لتوزيع نشرات الدعاية السوفيتية ٠ وان الوكالة السوفيتية كانت على صلة ببعض الضباط الطليان العاملين بخط بواخر البحر الاحمر الايطالية وبآخرين فى ارتريا ٠ وان المخابرات البريطانية فى جده قد رصدت تحركات الرفيق خاكيموف القنصل الروسى الذى شوهد وهو يسلم ثلاثة مسافرين على ظهر باخرة " البوستة الخديوية " المسماه

بور ولوس عددا من الطرود والرسائل وان هوءلاء الثلاثة عقدوا اجتماعا عند رسو الباخرة ببورتسودان مع وكيل البوستة الخديوية الايطالى المقيم بالميناء كما لاحظت تلك المخابرات أن أغلبية الذين يعملون على ظهر البواخر التى تحمل البريد كانوا من الروس . وأن مصريا يسمى سيد ابراهيم يشغل وظيفة كاتب بالباخرة المنصورة كان يعمل كحلقة اتصال بين ابناء جلدته المسئولين عن النشاط السياسى فى السودان وبين الرفيق خاكيموف الوكيل السوفيتى بجده وكان سيد هذا ابن أخ نائب الوفد فى دائرة السويس البريطانية .

ويذكر تقرير ادورد عطيه ان مما زاد من هواجس المخابرات البريطانية وضاعف من قلقها حول نشاط السوفيت التقاطها فى عام ١٩٢٥ لبرقية صادرة من موسكو من شخص يدعى مشكوفسكى ورد فيها لفظ اركوس واسم شخص يدعى ادورد قولزمان كان قد تقدم بطلب تأشيرة دخول لمصر كرئيس للبعثة السوفيتية التجارية . كما افادت معلومات تلك المخابرات أنه قد تم فى اوائل عام ١٩٢٥ انشاءخلية مصرية بجده مهمتها تنسيق العمل مع الرفيق خاكيموف لترشيد العمل الدعائى بالسودان وكانت تعمل تحت أمره عبد الرحمن بك فهمى بمصر ويقول ادورد انه كان للسوفيت نشاط فى أسمره حيث زارها فى ابريل ١٩٢٦ اثنان من سكرتيرى وكالتهم بجده . وانه فى ديسمبر من ذلك العام تلقت حكومة السودان توجيهات من المندوب السامى البريطانى بمصر بضرورة مراقبة الوكالة السوفيتية بجده التى زعم ان اهتمامها الاول كان السودان وانه بناء على تلك التوجيهات حاول مدير عام المخابرات بالسودان ان "يزرع" عيناً له داخل الوكاله السوفيتيه .

ويختم ادورد عطيه تقريره الذى هو اقرب للبحث منه للتقارير التقليديه بملاحظتين مؤدى اولهما انه رغما عن احاطه السوفيت بالسودان من ثلاث جهات من مصر ،ومن اسمره ،ومن مينائى البحر الاحمر جده ومصوع ،فانهم قد فشلوا فى ايجاد قاعده للدعايه البولشفيه فى السودان حيث ان كل الذى تيسر لهم فى هذا المجال هو تسريب بعض النشرات المعاديه للاستعمار وبعض الرسائل والخطابات الشخصيه . وبمقتضى الملاحظه الثانيه انه رغم الظروف الاقتصاديه المترديه فى السودان نتيجه الازمه الماليه العالميه وما صاحبها

من عطاله وتخفيض فى الاجور والمرتبات ومن هجره العمال الى المدن ورغم ما اصاب الجزيره وقطنها من كساد ورغم علم السوفيت بتلك الظروف وبأنها تشكل ارضا طيبه وتربه خصبه للدعايه البلشفيه الا ان "السودان كان فى مأمن من المؤثرات المصريه والاسلاميه والسوفيتيه وان كان حظ الكومنترن من فرص النشاط المباشر داخل السودان فى العشرينات والثلاثينات ضعيفاً فان شأنه لم يكن كذلك فى مصر ،فقد شهدت بعض سنى النصف الاول من العشرينات وطيله سنوات الثلاثينيات نشاطاً شيوعيا مصريا محموما ساعد عليه تفاقم الازمه الاقتصاديه العالميه وتصاعد حركه الاضرابات العماليه وتمرد فئات كثيره من المثقفين والمهنيين وازدياد خطوره الحركات الفاشيه التى كانت على صله بدولتى المحور الايطالى الالمانى والتى لم تكن تخفى اعجابها بهتلر وموسلينى .

ولم يكن لتنظيم كالكومنترن ان يهمل امر مصر او يقف متفرجا لما يحدث فيها ،وهى التى تحتل موقعا استراتيجيا خطيرا وقد ورد اسم مصر كثيرا فى محاضر جلسات سكرتاريته خاصه على عهد جورجى ديمتروف الذى تبوأ منصب امينه العام فى سنه ١٩٢٤، وتناولت صحيفته " الدوليه الثالثه " كثيرا من شئون القاهرة السياسيه والاقتصادية بالبحث والتعليق ،وقد كلف نفرا من اعضائه وعملائه بخلق صلات ودروب مع طائفه من شباب حزب الوفد ليجعل منهم ترياقا مضادا لتنظيمات الشباب التى كانت تنهج النهج الفاشى والتى كان يتزعمها احمد حسين موسى فرقه القمصان الخضراء وحزب مصر لفتاه ،وذلك رغم النقد المر الذى كان الشيوعيون المصريون قد وجهوه لخط الوفد السياسى واتهامهم لبعض رجاله ودوائره بممالاه الاستعماريين ووصفهم لهم بالاقطاعيين خاصه عندما اصدر سعد زغلول باشا فى عام ١٩٢٤ بوصفه رئيسا للوزراء قرارا بحل الحزب الشيوعى المصرى وتقديم كادره القيادىللمحاكمة الجنائية اثر اضراب عمالىنظموه فىالاسكندريةوكان ميلاد ذلك الحزب قد اعلن قبل ذلك بثلاث سنوات وكان ابرز اعضائه المصريين حسنى العرابى الذى اوحى اليه فى عام ١٩٢٢ ان يتقدم بطلب انضمام الحزب لعضوية الكومنترن وقد قبل طلبه رغن انه لم يكن من ابناء الطبقه العامله وانما كان من المثقفين المغمورين .

وقد كانت العقول و الايادى والعيون التى تعمل بتوجيهات الكومنترن فى مصر كثيره ومتعدده ،وكانوا كلهم من الاجانب الذين استوطنوا مصراو اتخذوها مقرا موقتا لاعمالهم . وكانت هناك جاليات كثيره من الطليان و الاغريق و الارمن والفرنسيين وكان هناك البريطانيون وكان غالبيتهم من الجنود والعسكريين . ثم كان هناك اليهود وكان هولاء اكثر الاجانب همه ونشاطا وحميه فقد كانوا يدركون خطر الفاشيه الداهم اكثر من غيرهم ،وكان بعض هولاء على اتصال مباشر مع قياده الكومنترن على عكس غالبيه الاجانب الاخرين الذين كانوا ينفذون توجيهات قيادات الاحزاب الشيوعيه فى الوطن "الام" التى كانت هى بدورها على اتصال برئاسة الكومنترن

وتبرز فى هذا المقام اسماء كثيرة لعل أخطرها هنرى كوريبل الذى صار زعيما لاكثر الحركات الشيوعية المصرية نفوذا والتى كان يشار اليها بـ " ح . م . " اختصار لاسم الحركة المصرية ومن بعدها حدتو أو الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى بعد ان تم توحيد بعض الحركات الشيوعية الرئيسية فى مصر فى منتصف عام ١٩٤٧ ولم يكن أثر كوريبل قاصرا على الحركة الشيوعية المصرية وانما متد اثره وربما بأكثر للحركة الشيوعية السودانية التى كانت تسمى بالحركة السودانية للتحرر الوطنى ويرمز اليها " بحستو " .

ولعل الكثيرين من المتهمين بتاريخ الحركة الشيوعية فى مصر والسودان كانوا يجهلون خطورة كوريبل ككادر ثورى دولى ، ولا يدركون مدى فعاليته فى الحركة الشيوعية العالمية ،وقد وضح ذلك جليا بعد نشر جزء من سيرة حياته الحافلة بعد اغتياله فى احدى ضواحى باريس فى الرابع من مايو ١٩٧٨ ،فقد تبين انه كان من اخطر الشخصيات الثورية

العالمية اذ ظل وعلى مدى سبعة وعشرين عاما هى مدة اقامته بفرنسا التى اتخذها موطنا بديلا عن موطنه الاصلى بمصر ،يوجه ويسهم فى قيادة الحركات الثورية و الارهابية فى مختلف ارجاء العالم فقد ثبت انه كان على صلات حميمة مع كل تنظيم يسارى أرهابى فى الغرب وفى بلاد العالم الثالث من الالوية الحمراء الايطالية ،الى بادرما ينهوف فى المانيا الغربية الوجبهات التحرر المختلفة فى جنوب القارة الافريقية الى ثوار البوليساريو فى الصحراء الغربية الى

الحركة الثورية المناهضة لحكم الشاه فى ايران ،الى تشكيلات المقاومة الفلسطينية المتعددة الى الجيش الاحمر اليابانى ، الى ثوار توبا مارو فى أرغواى و الارجنتين الى الجيش الايرلندى ، والحركات التى تضم التوريين و الارهابيين من الاقليات المهاجرة من المستعمرات السابقة والمقيمة بهولندا وبلجيكا والبرتقال والسويد ،والحركات الدينية والعرقية و الانفصالية فى ايران والعراق و اسبانيا .

وقد كان كوربيل موءهلا لان يحتل مكانا مرموقا فى قيادة الحزب الشيوعى الفرنسى بعد ان هاجر لفرنسا مبعدا عن مصر ، ولكن بالرغم من استقراره واقامته بها لمدة تنيف عن ربع القرن ورغم ثقافته الماركسية الواسعة التى لا يجاريه فيها الا القليل من قادة ذلك الحزب ،واطلاعه العميق وحصيلته الوافرة من كافة صنوف الادب الثورى ،وبالرغم من نضاله الذى لم يفتر ولم يهن من أجل ترسيخ دعائم الحركة الشيوعية ،ومن أجل زلزلة أقدام الامبريالية العالمية وزعزعة مواقع الاستعمار الحديث ، الا أنه ظل بعيدا عن عضوية المكتب السياسى للحزب الشيوعى الفرنسى بل وحتى عن عضوية لجنته المركزية .

ولاشك عندى أن الامر كان مقصودا ومدبرا من قبل العقول السوفيتية التى تخطط وتشرف وتراقب مسار الحركة الشيوعية العالمية حيث ان البعد عن الاضواء هو من ضرورات العمل الثورى خاصه اذا اتصف بالسرية ،ومن ركائزه اذا كان الارهاب احد الوسائل لتحقيق مآربه

وكانت تلك المتطلبات والمواصفات متوافرة فى كوربيل ،يضاف اليها استعداد يكاد يكون فطريا لمنازلة الصعاب ،ولمقابلة الشدائد ولمجابهة المخاطر ،بل وللمغامرة ايضا ... ولا يحسبن أحد ان الصفة الاخيرة من نقائص العمل الثورى اذ كثيرا ما اقتضى تنفيذ المهام الثورية قدرا متيقنا من المغامرة ،ولعل توافرها فى رجل فى مثل حصافة كوربيل وتجربته وثقافته مدعاة لمزيد من اهتمام السوفيت بأمره ، حيث انهم يحتاجون لامثاله من المغامرين الحكماء الذين يمكن أن تسند اليهم مهام تحرص الدولة السوفيتية علىتنفيذها دون أن يصيبها رذاذ أو يلحقها منها أذى .

وكان كوريبيل هذا أبا روحيا للطلاب السودانيين الذين ناضلوا فى مصر تحت راية " حدتو " وفى السودان تحت مظلة " حستو" الحركة السودانية للتحرر الوطنى ،والتى سميت فيما بعد بالحزب الشيوعى السودانى .

وقد تأثر كثير منا بأسلوب عمل كوريبيل خاصة عبد الخالق محجوب السكرتير العام للحزب السودانى الذى كان الرجل يوليه اهتماما زائدا ويتوسم فيه خيرا كثيرا للحركة الشيوعية فى السودان بل وفى مصر أيضا .

وقد ورث عبد الخالق الذى كان هو أمير لواء الحركة الشيوعية العالمية فى السودان ومعقد أمالها لمدة تجاور ربع القرن كثيرا من صفات أبيه الروحى . فقد كان مغامرا مثله ـ وكان يثق كثيرا بالروس لا يعصى لهم أمرا ولا يرفض لهم طلبا . ولعله لو سخر لانقلابه النجاح فى يوليو عام ١٩٧١ لكان السودان اليوم لقمة سائغة فى فم السوفيت ،ودمية طيعة فى أيديهم يحركونها كيفما ارادوا واين شاءوا .

ولم يقتصر دور كوريبيل على التأثير على مستقبل النشاط الشيوعى فى مصر والسودان عن طريق الكادر الذى تبناه ورعاه ،وانما يمتد اثره الى كل المنطقة العربية حيث كان هو الداعية الاول لقبول تقسيم فلسطين ،والتعايش السلمى مع اسرائيل ، وكان هو صاحب القول المأثور " ان اسرائيل ستكون واحة فى صحراء العرب " تتسرب منها الماركسية ليظلل غمامها البلاد العربية .

ولكن بالرغم من كل الصفات الثورية التى كان يتميز بها كوريبيل ،ورغم الطلاعة الواسع الا أنه كان ضيق الافق ،ولعل تربيته الارستقراطية الاولى ووضعه كأحد ابناء الجاليات الاجنبية فى مصر وفوق ذلك كيهودى ،قد أسهمت كلها فى انعزاليته ومن ثم فى سوء تقديره للظروف ووزن عواقبها .

وقد ورثت الحركة الشيوعية السودانية كثيرا من سلبيات الحركة الشيوعية المصرية التى كان يتزعمها كوريبيل ويبدو ذلك واضحا من سجل تاريخها ومن مواقفها الرئيسية التى اتسمت بالانعزال وبسوء التقدير . ومن أمثلتها معارضة اتفاقية فبراير ١٩٥٣ التى ارتضتها

كل الاحزاب السودانية والتى كانت المدخل لجلاء القوات البريطانية من البلاد ،والتردد فى الموافقة على اعلان الاستقلال من داخل البرلمان على أساس أنه موءامرة استعمارية ،ومنها الاشتراك فى انتخابات المجلس المركزى الذى لوح به الفريق عبود فى الوقت الذى أجمعت البلاد على مقاطعته . ومن أمثلة سوء تقدير الظروف ووزن النتائج الانقلاب الفاشل فى يوليو ١٩٧١ .

ولم يكن كوريل اداة الشيوعية العالمية الوحيدة المنوط بها بث الدعوة فى السودان والمكلفة برعاية وترشيد نشاط الرفاق من أبنائه ،فقد سبقه الى تنفيذ طرف من تلك المهمة الحزب الشيوعى البريطانى الذى كان يتمتع بثقة واحترام قيادة الكومنترن لما عرف به اعضاوءه من انضباط ومثابرة ،وغيره على تنفيذ المهام ،ولانه كان المدخل لتنفيذ مخططات الشيوعية الدوليه فى مستعمرات بريطانيا الكثيرة وفى البلاد التابعة لها .

وقد أهلته موازينه الدولية الثقيلة هذه لان يحظى بقدر كبير من اعانات الكومنترن ومساعداته وذلك رغم خفة وزنه السياسى بين ابناء شعبه البريطانى ورغم قلة عدد عضويته وضعف بنيته . وكان الكومنترن يدخل فى حسابه عند تقييم وتقدير مساعداته للأحزاب الشيوعية الاوربية مدى وحجم المساهمة التى تقدمها هذه الى ربائبها اللاتى فى حجورها من أحزاب المستعمرات .

وبالطبع فقد تعاظم دور الحزب الشيوعى البريطانى بالنسبة للكومنترن عند بداية الحرب العالمية الثانية ،حيث انتشرت جيوش الامبراطورية فى مختلف ارجاء العالم وكانت تلك فرصة سانحة لتسرب الشيوعيين البريطانيين المجندين الى " ما وراء البحار " .

ولم ينج السودان من الفيروس البريطانى الذى جلبته الحرب .فقد كان من ضمن صفوف القوات البريطانية التى أرسلت اليه وكيل رقيب يسمى ستورى . وكان هذا عضوا بالحزب الشيوعى البريطانى . وقد بدأ فور وصوله الخرطوم اتصالاته مع نفر قليل من طلاب المدارس العليا كان أبرزهم احمد زين العابدين ،وبعض المثقفين وكان فى طليعتهم حسن الطاهر زروق ، ومع طائفة من طلاب المدارس الثانوية كان على رأسهم عبد القيوم محمد سعد وآدم ابو سنينه واحمد محمد خير .

وكما أسبغت الحركة الشيوعية المصرية بقيادة كوربيل بعض صفاتها على الحركة الشيوعية السودانية واورثتها كثيرا من سلبياتها ،كذلك فعل الحزب الشيوعى البريطانى الذى لا تزال آثار بصماته ونواقصه ظاهرة فى الخط السياسى الدولى للحزب الشيوعى السودانى ،حيث الولاء التام للاتحاد السوفيتى ولما يصدر عنه . وقد عرف الحزب الشيوعى البريطانى دون غيره من أحزاب أوربا الشيوعية بولائه الذى لم تزحزحه اخطاء السوفيت الشنيعة "وجلايطهم المتكررة ولم يضعفه تنكرهم للوعود والمثل التى ظلوا يلوكونها ويمضغونها لعشرات السنين .

ولعل خير شاهد على تبعية الشيوعيين البريطانيين لروسيا وتغليبهم مصلحة الاتحاد السوفيتى على مصالح شعبهم البريطانى موقفهم الغريب من الحرب العالمية الاخيرة وقد سبق لى ان أشرت اليه فى احدى المناسبات . ولا نرى بأسا من اعادة الاشارة اليه هنا .

فقد حرصت الصحافة البريطانية فى خريف ١٩٧٥ على نشر مذكرة سرية قدمها مستر هربرت موريسون وزير الداخلية العمالى لمجلس الوزراء البريطانى فى عام ١٩٤٣ عن موقف الحزب الشيوعى البريطانى المعادى للحرب فى شهورها الثمانية الاوائل . وقد استطاعت الصحف نشر تلك المذكرة بعد مرور ثلاثين سنه على نهاية الحرب اذ تمنع القوانين الانجليزية نشر الوثائق السرية الحكومية قبل مرور مثل تلك الفترة ... ولعل مدة الحظر الزمنيه قد خفضت اخيرا .

وقد أسس مستر موريسون مذكرته على محضر وقائع احدى جلسات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى البريطانى وقد جاء فى تقريره :

عندما فوجىء العالم فى الثانى والعشرين من أغسطس ١٩٣٩ بنبأ توقيع اتفاقية عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتى والمانيا النازيه ذهل الرفاق البريطانيون وصدموا اذ كانوا وعلى مدى بضع سنين يسوقون التهم ويكيلونها على حكوماتهم ويتهمونها بالميول وبالتعاطف مع المانيا الهتلرية .

وقد حاولت صحيفة الحزب (الديلى وركر) ان تقلل من آثار الصدمة وحاولت الادعاء بأن اتفاق ستالين وهتلر كان " ضربة من أجل السلام" وفى نفس الوقت دعت العمال والمثقفين ان يشددوا من ضرباتهم الموجهة

لحكومة تشمبرلين التى اتهمتها بأنها لا تتخذ موقفا صارما من النازيين .

وعندما غزا هتلر بولندا طالبت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى البريطانى باعلان الحرب على المانيا ودعت الى اقالة مستر نيفل تشمبرلين رئيس الوزراء لموافقه المتهالكة ولضعفه امام هتلر .

وفى السادس عشر من سبتمبر ١٩٣٩ أى بعد خمسة عشرة يوما من اعتداء هتلر على بولندا ألف هارى بوليت سكرتير الحزب الشيوعى البريطانى كتيبا سماه " كيف نكسب الحرب " ولكن وبعد يوم واحد من اصدار الكتيب المذكور احتلت الجيوش السوفيتيه الجزء الشرقى من بولندا بمقتضى احد المواد السرية لوفاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتى والمانيا النازية ... والقم الشيوعيون البريطانيون صخرة بأكملهاوليس حجرا . ولكن بعد قليل (عادت ريمة لى قديمها) وبدأت (الديلى وركر) تنشر التبريرات للغزو السوفيتى متناسية ان اتفاقية عدم الاعتداء نصت سلفا على اقتسام بولندا وعلى اضافة جزئها الشرقى لروسيا والآخر لالمانيا . فكان ان نشرت بالبنط العريض ان الجيش الاحمر قد فعل فعلته التى فعل من اجل (تموين) فلاحى شرق بولندا بالخبز !! ... والفلاحون (المساكين) المفترى عليهم لم يطلبوا من احد خبزا ولم يكونوا فى حاجة اليه حيث انهم اولا فلاحون شغلهم الشاغل فلاحة الارض وعزقها وزراعة القمح وثانيا فان اراضى شرق بولندا تعتبر من أخصب أراضى الدنيا واكثرها صلاحية لزراعة القمح وثالثا ليس بالخبز وحده يعيش الانسان ... وصدق المسيح عيسى بن مريم روح الله وكلمته .

وفجأة تغير موقف الحزب الشيوعى ودون مقدمات أصدر توجيهاته لكل عضويته بألا يسهموا فى المجهود الحربى اذ انها حرب استعمارية غير عادلة ولا مصلحه للطبقة العاملة البريطانية فيها ... كل ذلك وبعد ان كانت بريطانيا قد أعلنت الحرب على المانيا وبعد ان كان الحزب الشيوعى البريطانى يتهم رئيس الوزراء بالتخاذل والضعف امام هتلر ويطالبه باعلان الحرب ... وقديما قيل اذا عرف السبب بطل العجب فقد اصدر الكومنترن والذى كان مقره موسكو تعليمات لكافة الاحزاب الشيوعية بأن يقفوا بمعزل عن الحرب ... وقرر بالنص ان الحرب الدائرة " حرب استعمارية غر عادلة يقتسم البرجوازيون فى الدول

المتحاربة وزرها بالتساوى - وعلى الطبقة العاملة وأحزابها الشيوعية ان تقف بمعزل عنها " .

وكان ان اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى البريطانى فى جلستها المنعقدة فى الثانى من اكتوبر ١٩٣٩ بأغلبية واحد وعشرين عضوا فى مواجهة ثلاثة اعضاء فقط قرارها المشار اليه وأضافت اليه نداء طالبت الرفاق بموجبه مضاعفة الجهد وتكثيف العمل من اجل كشف القناع عن الوجه البرجوازى لقيادة حزب العمال حيث كانت هذه تدعو لمواصلة الحزب ضد الطغاة الهتلريين ولانقاذ العالم من براثن النازية الآثمة .

ولكن وبمجرد ان دخل الاتحاد السوفيتى الحرب ضد المحور الفاشى النازى صارت الحرب فى نظر الحزب الشيوعى البريطانى حربا عادلة (ولحس) الحزب دعوته للعمال بمقاطعة المجهود الحربى بل ناشدهم بمضاعفته وبالالتحاق بقوات الامبراطورية المسلحة وبخوض غمار الحرب .

وكما سبق لى أن قلت فان هذا كان شأن الحزب الذى ارتضيناه قيما علينا وهاديا لنا خاصة فى ساحة العلاقات الدولية والتىكلفنا الانصياع لتوجيهاته شططا وعنتا ،فقد كان هو وراء تحليلنا الخاطئ ،فى البداية ،لثورة يوليو المصرية ،وكان هو الذى نصح برفض اتفاقية القاهرة التى حققت الحكم الذاتى وجلاء القوات البريطانية عن السودان وكان هو الذى أشار الينا بالانحياز لجانب الحزب الشيوعى السوفيتى فى بداية صراعه المرير ضد الحزب الشيوعى الصينى . وقبل ذلك كان هو هو من ضمن القوى التى دفعت " حستو " لتأييد تقسيم فلسطين .

وهكذا يتضح ان تأثير الكومنترن على مسار الحركة الشيوعية السودانية فى الاربعينات كان تأثيرا بالغا رغم أنه كان غير مباشر وقدامتد هذا الاثرالىمابعدحلالكومنترن فى عام ١٩٤٣ اذ ظلت العلاقة وطيدة بين الحزب الشيوعى السودانى والحزب الشيوعى البريطانى، اداة الكومنترن الاولى فى بث الدعوة الشيوعية فى السودان .

ولعلنا لا نغلو ان قلنا ان السودان كان من البلاد القليلة التى حقق فيها الكومنترن انتصارا فى السنين الاخيرة التى سبقت اعلان موته حيث انه فشل فى كثير من محاولاته لبذر بذور الحركة الشيوعية فى غيره من البلاد المشابهة .

وقد اسهمت عوامل كثيرة فى اضعاف نفوذه العالمى وفى عجزه عن

تحقيق الامانى التى كان يوءملها البولشفيك من وراء تأسيسه فى عام ١٩١٩ . وقد ظل لينين يراقب نشاطه ويرعاه الى حين وفاته فى يناير من عام ١٩٢٤ . وقد حرص على حضور جلسات موءتمره الثانى الذى عقدفى موسكو فى الفترة من التاسع من يوليو الى السابع من اغسطس من عام ١٩٢٠ . وقد اختار ان يكون عضوا باللجنة التى انيط بها دراسة ما سمى بالمسألة الوطنية وقضايا المستعمرات وذلك للاهمية البالغة التى كان يعلقها على أعمال تلك اللجنة وقد قدم لتقريرهابخطاب حدد فيه مهام الدولية الثالثة فى ذلك المجال بقوله :

" ارجو أن أوكد ضرورة تنفيذ المهام الثورية الملقاه على عاتق الاحزاب الشيوعية ليس فيما يتعلق بشئون بلادهم فحسب وانما فيما يتصل بشئون المستعمرات وذلك بالتركيز على الجند وافراد القوات المسلحة المكلفين من قبل المستعمرين بتحقيق سيطرتهم على شعوب المستعمرات " .

ورغم الانتصارات الجزئية التى حققها الكومنترن على عهد ستالين فان نفوذه العالمى وخاصة فى اوربا بدأ يضعفولضمحل بعد موت لينين . وذلك لان ستالين استغل منبره فى صراعه الداخلى ضد تروتسكى وزينوفييف عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى البولشفى ورئيس الكومنترن ،وكامينيف صهر تروتسكى واحد اعضاء الحكومة الثلاثية التى خلفت لينين ولم يكتف بطردهم ورفاقهم من الحزب فى عام ١٩٢٧ بل امر بتقديم زينوفييف وكامينيف للمحاكمة فى عام ١٩٣٦ وتم اعدامهما فى تلك السنه كما دبر اغتيال تروتسكى بالمكسيك فى عام ١٩٤٠ بعد ان تم نفيه خارج روسيا . وقد كان لتلك المحاكمات والاعدامات التى شملت كثيرا من زعماء البولشفيك وكبار الضباط اثرها السلبى بالنسبة لسمعة البولشفيك وتنظيماتهم الدولية وعلى رأسها الكومنترن .

كما ادى فصل تروتسكى من الحزب ونفيه الى انشطار الحركة الشيوعية العالمية حيث صار لها مركزان احداهما بقيادة ستالين وكان هو الغالب عددا ونفوذا والآخر بقيادة تروتسكى .

وبالرغم من ان ذلك الانشطار فى الحركة الشيوعية كان له اثره فى كثير من البلاد الاوربية وفى بعض دول العالم الثالث الا انالحركة الشيوعية فى كل من مصر والسودان كانتا فى معزل ومأمن من تأثيره

فقد حاول نفر قليل من المصريين على رأسهم جورج حنين وفتحى الرملى وأنور كامل خلق تنظيم تروتسكى فى مصر ولكنهم فشلوا فى تحقيقه ،وكان يتعاون معهم سودانيان من اصل نوبى هما الصحفى صالح عرابى الذى لم يكن فى قرارة نفسه ملتزما التزاما جادا بأى من مدارس الشيوعية ،والمحامى خليل آسى الذى ظل على وفائه لافكار تروتسكى الى ان توفى قبل نيف وعشر سنين .

ولكن ان كان السوفيت قد استطاعوا ورفاقهم من الشيوعيين التقليديين ان يحولوا طيلة هذه المدة دون تسرب افكار تروتسكى الى السودان ،وان يجعلوا من الحركة الشيوعية السودانية ،ومنذ تأسيسها وفى كل حالات ازدهارها وضعفها وهزالها منطقه مقفولة لنفوذهم فان الامر لن يسير على هذا المنوال اذ ان الحركة الترتسكية فى تصاعد وانتشار ولن يكون السودان فى مأمن من شرها ، فقد بدأت تجذب الشباب ليس فى البلاد الاوربية وحسب وانما فى بلاد العالم الثالث ايضا .

ولعل اصدق مثال لذلك انجلترا حيث تعانى رئاسة حزب العمال من تسلل التروتسكيين الى قاعدة الحزب ،بل والى بعض دوائر قيادته وبين صفوف نقابات العمال والمهنيين واستطاع احدهم ،هو كين لفنغستون المعروف بكين الاحمر ،ان يعتلى كرسى رئاسة مجلس بلدية لندن الكبرى " قراند لندن كونسل " ولعله لا زال .

كما برز التروتسكسون كقوة موءثرة فى حياة بعض شعوب العالم الثالث مثل سيلان " سيرلانكا الان " اذا احتل التروتسكيون اربعة عشر مقعدا فى برلمانها بينما كان نصيب الشيوعيين الموالين لموسكو ثلاثة فقط .

وقد ساعدت اخطاء السوفيت وتنكر حزبهم لمبادئه المعلنه واستغفالهم لعقول الناس واستخفافهم بمشاعر موءيديهم وتحجر قيادات الاحزاب الشيوعية الموالية لهم على انفضاض كثير من الشبان من صفوف تلك الاحزاب والى انسلاخ احزاب بكاملها من دائرة النفوذ الروسى كالحزب الشيوعى الايطالى والاسبانى .

كما اسهم انتشار موءلفات تروتسكى فى بعث الحركة الملتفه حول فكره . فقد اخذت المطابع تمد المكتبات بسيل متواصل منها وهى كثيرة تكاد تضاهى موءلفات لينين ،وربما تميزت عليها ، اذيعالج

بعضها طرفاً من القضايا الاكثر معاصرة من تلك التى عالجها لينين حيث ان العمر قد امتد بتروتسكى لخمسة عشر عاما بعد وفاة استاذه وكذلك كان للحملة ضد ستالين اثرها فى صعود نجم تروتسكى من جديد بعد ان كان من الآفلين ،تلك الحملة التى فجرها خروشوف فى عام ١٩٥٦ بخطابه السرى فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعىالسوفيتى والذى عدد فيه ممارسات ستالين الاجرامية وفضح فيه انتهاكاته للديمقراطية السوفيتية والعدالة الاشتراكية .

وبالحق فان ستالين لا يرقى لمستوى هامه مارد كتروتسكى الذي قدم للثورة اللشفيه بأكثر من اى رفيق آخر وربما اكثر من لينين نفسه فقد كان هو الذى تزعم ثورة ١٩٠٥ وقاد ثورة فبراير ١٩١٧ وكان رئيسا لسوفيت العاصمة بيتروقراد ابان اندلاع ثورة اكتوبر ١٩١٧ وكان هو اول وزير لخارجية الدولة الجديدة فى احلك ساعاتها وفى اكثر ظروفها الداخلية والخارجية تعقيدا وكان هو الذى اسس الجيش الأحمر وقاد انتصاره ضد قوات الجنرال دينيكين طليعة بقايا النظام القيصرى القديم الذى كان يمثل تهديدا حقيقيا للسلطة البلشفية حيث كان يتلقى العون من اربعة عشر دولة اوربية مالا ورجالا وعتادا .

وإن كانت ابواق دعاية ستالين وأجهزة قعمه قد نجحت فيما مضى فى تعتيم سيرة حياة ترتسكى وفى تهوين شأنه وتقليل قدرة وتحقير دوره فى الثورة الشيوعية الكبرى وفى اسكات بعض الاصوات التى عرفته فانصفته فان اسهام الرجل وانجازه الثورى قد بدأ يتضح الان . كما ان افكاره عن الثورة الدائمة وارائه عن مستقبل الحركة الشيوعية العالمية بدأت تجد آذانا صاغية وعقولا مفتوحةلدى الشباب الذى يزداد تبرمه بالحياة السياسية وبممارسات وسلوك الطبقات الحاكمة والذى بدأ يكفر بالمدارس الفكرية التقليدية ومنهاماركسية السوفيت .

ومهما كان من أمر الكومنترن ورغم الزحمه التى صاحبت تأسيسه والضجة التى لازمته فى كل مراحل حياته الى حين حله ورغم الهالة التى احاطه بها الشيوعيون والحلة الثورية الزاهية التى تدثر بهافان انجازاته بالنسبة لتزيين وجه الشيوعية العالمية ونشر افكارها لا تتجاوز الصفر الا قليلا ... ولعل ستالين قد لمس نواقصهوسلبياته

عندما اوحى بحله فى عام ١٩٤٣ او لعله قد ادرك ان ضررة اكثر نفعه اذ لم يعد التنظيم الدولى الذى يتناسب مع ظروف حلفه مع امريكا والدول الرأسمالية التى تشاركه خوض غمارحرب ضد النازيين والفاشيين او لعله قد اسكرته وادارت رأسه ارهاصات النصر التى بدأت تهل بعد طول غياب ،مع مطلع عام ١٩٤٣ حين فشلت القوات الالمانية تعاونها فرق عسكرية ايطالية ورومانية ومجرية من اقتحام ستالينجراد . او ربما هزته سمعة الاتحاد السوفيتى التى تعاظمت نتيجة لتضحيات الروس وصمودهم فى الحرب وانه لم يعد تبعا لذلك فى حوجة لتنظيمات تجيد الكتابة وتكثر الكلام ،حيث القول الفصل اصبح عنده للسيوف لا للاقلام .

وكان على ستالين ان يجد مسوغا تستسيغه الاحزاب الشيوعية العالمية يبرر به حل الكومنترن بعد كل الضجة التى اثيرت حوله منذ ولادته كضرورة ثورية عالمية . ولم يكن للمبررات ان تتباطىء عن نجدته او تبخل عليه بالاسعاف ففى مقتضيات الثورة واحتياجاتها وضروراتها ومتطلباتها ومستلزماتها وظروفها السند الدائم والمخرج المنقذ ،والمسوغ الجاهز لكل فعل سياسى ولو كان شائنا ،ولكل موقف ولو كان خاطئا ،ولكل ردة ولو كانت خطيئة ،ولكل جريمة ولوكانت مذبحة شنيعة ... وهكذا كانت الثورة وحقوق ارتفاقها كلمات طيعات ساحرة يلوكها الشيوعيون ليلا ونهارا ،ويتخذون منها متكأ وملجأ ومغارة يلوذون بها كلما اعوزتهم الحجة واستعص عليهم الحل ،ويسندون ظهورهم على جدوها كلما ضاقت بهم الارض وحزب الامر ولم يكن ستالين ،بالطبع ،استثناء من قومه فهو كبيرهم الذى علمهم السحر ،فبعد ان اشار الى ان حل الكومنترن اضحى ضرورة ثورية اقتضتها الظروف الثورية العالمية السائدة ،أضاف سببين يدخل كلاهما فى باب الرشوة السياسية لظهيرين نقيضين هما الحركة الشيوعية العالمية التى كان يمتطى ظهرها والدول الرأسمالية المتحالفة معه ضد النازية والفاشية . فقد اسعد الاحزاب الشيوعية وأشبع غرورها بادعائه انها بلغت سن الرشد وانها لم تعد ،بعد ان نما عودها واشتد ساعدها فى حوجة لمن يرعاها او يهديها سواء السبيل . كما ارضى بعض الدوائر الحاكمة فى معسكر الدول الرأسمالية الحليفة خاصة تلك التى كانت تنادى بضرورة مراعاة مقتضيات التعاون الدولى مع الاتحاد

السوفيتى بزعمه ان جدلية ذلك التعاون تقتضى ازالة كافة الاجهزة الدولية التى تعكس مظاهر الخلاف بينه وبين حلفائه وتكرس التناقض القائم بينهما ،وعلى رأس تلك الاجهزة تنظيم الكومنترن .

ولم يكن لمثل ذلك القول ان يقنع رجلا فى حصافة ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الزمان والذى كان يعلم ان لستالين اكثر من لسان ،ولكن القول كان موجها بالدرجة الاولى ،الى الرئيس روزفلت الذى كان يعتقد ان الحرب قد احدثت تغييراً كبيرا ان لم يكن جذريا فى السلوك الدولى المتحضر للاتحاد السوفيتى ... وكان ستالين يلهث جاهدا وراء كسب ثقة امريكا ويسعى جادا لنيل رضاء روزفلت حيث كان يطمع بل ويلح فى طلب فتح جبهة عسكرية جديدة فى اوربا تخفف العبء عن الجبهة الشرقية التى كان هتلر يركز عليها تركيزا كبيرا والتى كان يتحمل ستالين ،وحده ،شدة وطأتها وثقلها .

وبحل الكومنترن طويت صفحة من سجل الحركة الشيوعية العالمية وانتهت فترة من حياتها اتسمت بانحسار مدها وبفلول شمسها بعد ان كانت قد بزغت اثر انتصار الثورة البلشفية فى روسيا وعلى طول عهد لينين .

ولعل اهم العوامل التى أدت الى ذلك الانحسار وذاك الفلول ثلاثة اولاها خيبة الامل فى النظام الجديد الذى افتضح امره عند بداية تطبيقه ومنذ ارساء قواعده فى روسيا حيث تجاوزات ستالين وتزييفه للمثل والمبادىء الديمقراطية وانتهاكاته لاسس العدالة السوفيتية التى كان يبشر بها لينين والتى تمثلت فى التصفية الجسدية لعشرات الالوف من المزارعين الذين لم يستسيغوا تجربة الكلخوزات والمزارع الجماعية وفى الاعدامات التى لم يسلم منها حتى الخلصاء من البلاشفة رفاق لينين ،عسكريين وسياسيين .

وثانيها تزايد الخطر الفاشى وعجز التنظيمات الشيوعية الاوربية التى كانت تعمل بوحى من الكومنترن وبتوجيهاته ،عن صده وخاصة فى اسبانيا حيث انهارت الجبهة الشعبية التى اسسها الشيوعيون ودالت دولتها تحت ضربات الجنرال فرانكو القاضية وكذلك فى فرنسا حيث ادى تسلط الشيوعيين ونزاعاتهم المعهودة الى شل الجبهة الشعبية التى كان يترأس حكومتها الزعيم الاشتراكى ليون بلوم .

وثالث العوامل التى اسهمت فى تسويد وجه الشيوعية العالمى

اندحار الجيوش السوفيتية وانهيارها المفزع وتراجعها السريع امام ضربات هتلر المتلاحقة طيلة السنتين الاوليتين للحرب حتى بات يطرق ابواب موسكو واوشك ان يأخذها باليمين ويقطع منها الوتين وحتى كاد الناس يصدقون قوله بأن الاتحاد السوفيتى ما هو فى حقيقته الا مارد من طين .

ولكن وبعد ان بدأ الدب الروسى يصحو من سباته وبياته وغفوته وبعد ان ذهب عن قومه الروع وبدأوا يفيقون من صدمة الهجمة النازية العاتيه العارمة ،ونتيجة لوقفتهم الصامدة الباسلة فى ستالينجراد وليننجراد ،ومع تباشير النصر ،اخذت الصورة القاتمة عن الاتحاد السوفيتى تنجلى وتحل محلها صورة وطن يغالب الصعاب ويصارع المحن . ويجابه الازمات ويتغلب على عاديات الزمن . وقد اسهمت اجهزة دعاية الحلفاء وخاصة الامريكية منها فى تزيين وجه ايفان الرهيب بابراز معالم فتوته ومظاهر فتنته حتى بدا على غير حقيقته طلقا مشرقا ،ضاحكا مستبشرا .

وبانتهاء الحرب برز موطن الشيوعية كمارد حقيقى وليس كمازعم هتلر مسخ ترابى واتسعت مناطق نفوذه . وبعد أن كان يقف فى الساحة الدولية وحيدا يتيما امتدت اطرافه ،وانتفخت اوداجه ، وانبسطت يداه لتلتف حول بولندا وبلغاريا ويوغسلافيا ورومانيا وهنغاريا وتشكوسلوفاكيا والبانيا والمانيا الشرقية ،وانطلق ثانى عطفه يطرق ابواب دول اوربا الغربية حيث علا شأن الاحزاب الشيوعية واتسعت عضويتها وارتفعت هامات الحزبين الشيوعيين فى كل من فرنسا وايطاليا وبات الحزب الشيوعى الصينى قاب قوسين او ادنى من استكمال سيطرته على الصين الكبرى ،وارتفعت رآيات النضال المسلح فى فيتنام وكمبوديا ،وفى لاوس وبورما ،وفى الملايو واندونيسيا ،وتعالت اصوات الشعوب المغلوبة على أمرها فى بقية انحاء آسيا وفى افريقيا وفى امريكا اللاتينية تطالب باستكمال سيادتها وتحقيق استقلالها . ولم يكن ابناء مصر والسودان استثناء ولا نشازا . وبدأنا ننجذب نحو روسيا بعد ان خاب أملنا فى المانيا التى كان ظننا انها ستكون لنا عزا .

وبدأت امريكا تستيقظ من النعاس الذى غشيها ومن الآمنة والغفلة التى كانت عليها حين وثقت بستالين وحسبت انه سيكتفى ،بعد ان

تضع الحرب اوزارها ،بما كتب له فى كازبلانكا ،وسيرضى بما قسم له فى اجتماعى الظهران ويالتا ... وما درت ان تلك كانت بالنسبة له قسمة ضيزى لا تشبع نهمه الطاغى ولا تحقق الا قدرا يسيرا من احلامه الكبرى ... وكان كلما اشتد نواح امريكا وعلا نباح توابعها ازددنا تمسكا بروسيا التى لم تكتف بأساليب الدعاية والاثارة القومية المتعارفة بل لجأت الى الكلمة المكتوبة تغزوبها عقولنا وتشبع بها غرورنا وتصور لادراكنا القصير اننا ندخل ميدان السياسة كمفكرين لا كسياسيين تقليديين . وكنا كلما ازداد اطلاعنا على كتب الماركسيه التى كانت تدفع بها المطابع المنتشرة فىبيروت والسرية فى القاهرة ،وعلى احاديث ستالين الصحيفة القليلة المتباعدة ،وعلى خطب مندوبيه بالامم المتحدة الذين كانوا يلعبون بالكلام بألسنة وأصوات عدة ،كلما ازداد حبنا لروسيا وازداد تعلقنا بها حتى صرنا شهداء غرامها نغتفى اثارها ونلتمس رضاها وننطق بلسانها.

وحاول الامركيان تدارك الامر واسترجاع ما أضاعوه فى صيف غفلتهم وذلك بتقديم المساعدات الاقتصادية للدول الاوربية التى تشاركهم الخوف من نزوات ستالين وأطماعه ،فكان مشروع مارشال وما تبعه وتلاه من برامج العون والمساعدة ... وهبت رياح الحرب الباردة عاصفة عاتية . وأدرك ستالين بدوره انه بحاجة لتنظيم دولى يشد ملكه ،ويرد عنه غائله الحملة الاعلامية الطاغية .التى فجرها تشرشل وأشعلت نارها اجهزة الاستخبارات الغربية القادرة ،ويشرف نيابة عنه على مسار الحركة الشيوعية بما يحقق بسط سلطانه عليها وسيطرته التامة ،فكان أن فكر فى بحث الكومنترن ولكن باسم جديد وبأهداف معلنة مغايرة حتى لا يقال انه صورة مطابقة للسلف الذى كان قد دفن وقبر وصار عظاما نخرة بالية ... وهكذا تم الاعلان فى عام ١٩٤٧ عن تأسيس الكومنفورم او مكتب الاستعلامات الشيوعى الذى ضم بجانب الحزبين الشيوعيين السوفيتى والايطالى احزاب اوربا الشرقية التى اطلق عليها اسم بلاد الديمقراطية الجديدة ... والديمقراطية فى واقع الامر والحقيقة غائبة عنها طريدة . وما أحداث وارسو ومن قبلها براغ وبودابست ببعيدة .

وذكر فى بيان تدشينه ان اهدافه تقتصر على مجرد التعاونبين الاحزاب الشيوعية وعلى تبادل الخبرة والمعلومات فيما بينها ،وذلك

دفعا لشبهة وصاية الحزب السوفيتى عليها ،وتنصلا مقصودا من تهمة رعايته لها ،وبعدا مفتعلا عن مظنة التدخل فى شئونها .

ولكن الكومنفورم لم يحقق أيا من الاهداف التى انشأ من اجل تحقيقها لا الحقيقية المستورة ولا الصورية المعلنة . وقد كان اسوأ حالا واكثر تعاسة من سلفه الكومنترن وكان كذلك اقصر عمرا ،رغم المجلة التى لا تزال تصدر باسمه ،فقد نحر نفسه ولما يكمل السنتين وذلك عندما قاد حملة عدائية ضارية ضد جوزيف بروز تيتو احد أبرز اعضائه وموءسسيه والذى وصف بأنه مارق آثم لانه شق عصا الطاعة ورفض تدخل بابا الشيوعية الطاغية فى شئون حزبه وبلاده .

وقد فوجىء العالم بتلك الحملة الظالمة التى انتهت بفصل تيتو وعصبة الشيوعيين اليوغسلاف ،وكان هذا اسم حزبه ،من حظيرة الكومنفورم .

وقدمت كل من قيادة الكمنفورم وقيادة يوغسلافيا تفسيرها المختلف لخلفيات القطيعة ولمسببات النزاع . وكانت الهوة شاسعة بين التفسيرين فقد صورت الاولى ومن ورائها اجهزة الدولة السوفيتية وحزبها الشيوعى تيتو بصورة الابن العاق والخائن الاول للحركة الاشتراكية الدولية والحليف المستتر للرأسماليه العالمية والعميل الخفى للاستعمار الحديث . ولكن تيو ظل يوءكد دائما والى ما قبل مرض موته ان السبب الجوهرى للنزاع هو رفضه الانصياع لأوامر ستالين وعدم قبوله لان تكون موسكو مركز الارشاد والتوجيه للحركة الشيوعية العاملية فيما صغر وكبر من المسائل ،وانه انتقد سياسة المحاور والتكتلات العسكرية التى كانت روسيا طرفا فيها بوصفها سياسة تهدم مبدأ التعايش السلمى الذى كان ينادى به لينين والذى كان يتمشدق به ستالين كذبا وبغيا .

وقد حاولت اجهزة الدعاية السوفيتية ومن ورائها الاحزاب الشيوعية التى كانت تدور فى فلك الاتحاد السوفيتى وتأتمر بأوامره ان تخلع على النزاع حلة تجعله يبدو وكأنما عو صراع حول تنقية الماركسية وتزكيتها وتطهيرها من الادران التى الحقها بها تيتو الانتهازى المرتد . واتهمت سياسته الزراعية بأنها تهدف الى اعادة مجتمع الرأسمالى الى الريف اليوغسلافى وذلك لرفضه تصفية طبقة الكولاك او اغنياء الريف وانه يرفض الاستفادة من تجربة الاتحاد السوفيتى

فى هذا المضمار ولكن بولرغم من ان تيتو وعصبة الشيوعيين اليوغسلاف كانوا يدركون ان ذلك مجرد قناع لتغطية حقيقة الصراع الدائر بين الدولتين ، الا انهم تصدوا لتلك الاتهامات وقدموا المسوغات النظرية لسياستهم الزراعية فقد اشاروا الى ان تجربة الاتحاد السوفيتى تجربة فاشلة فقد لجأ ستالين فى اواخر العشرينات الى تصفية الملاك الزراعيين تصفية جسدية فأعدم عشرات الالاف منهم بعد ان رفضوا الاشتراك فى المزارع الجماعية والموءممة وبعد ان فضلوا ان تنفق مواشيهم وانعامهم من ان يسلموها لتلك المزارع والتجمعات وكانت النتيجة ازمة الزراعة السوفيتية التى لا تزال روسيا تعانى من اثارها الى الان وبعد مضى ما يزيد عن نصف القرن من تطبيقها والتى من مظاهرها لجوء الاتحاد السوفيتى وهو الذى يمثل وحده سدس اليابسه لان يستورد القمح من امريكا وحليفاتها كندا والارجنتين واستراليا . كما اشارت عصبة الشيوعيين اليوغسلاف الى ان ثمة اختلافات جوهرية تميز الكولاك الروسى عن صنوه اليوغيسلافى فالاول كان أكثر ثراء حيث انتمائه القديم لارض روسيا الطيبة الواسعة وحيث ارتباطه الوثيق وولائه العميق لنظام الحكم في روسيا القيصرية وحنينه الدفين الى عودته ، اما ندوه اليوغسلافى فلم يكن فى مثل ثراء الاول حيث ظل لما يقارب الخمسة قرون يرزخ تحت نير الحكم التركى ،كما انه يعد ،وبحق ،من فيئات التحاليف الثورية التي تشكل اساس الحكم في دولة يوغسلافيا الفدرالية ،فقد أسهم بدور فعال فى تحرير بلاده من الحكم الفاشي والنازي . ولكن لا هذا التفسير ولا تاريخ تيتو النضالي كانا ليشفعا له عند ستالين الذي نصب نفسه راعيا ووصيا علي الحركات الشيوعية وقيما على الفكر التقدمى فكأنما هو بابا القرون الوسطى يحرر صكوك الغفران ويصدر قرارات الفصل من الكنيسة الكاثوليكية ،ومن ثم الحرمان من نعيم الدنيا والآخرة على السواء ... هذا وكل الذنب الذى ارتكبه جوزيف بروز تيتو انه رفض ان يكون صوتا لسيده . ولعل من الاسباب الخفية التى زادت من حنق ستالين عليه وضاعفت من غيظه وجعلته يخرج عن قارة ويشتط في عدائه له ،سابق دالة له واحسان عليه فقد كان ولي نعمته ، اذ كان هو الذي نصب تيتو وبوأه زعامة الحزب اليوغسلافى بعد أن أعدم حاكم روسيا قائد الحزب الشيوعي اليوغسلافي

ضمن من أعدم في محاكماته وتصفياته الشهيرة في عام ١٩٣٧ نتيجة هوسه وهواجسه .

ولكن ومهما كان من أمر المعاناة التى عاناها تيتو، وبالرغم من الاذى الذى لحقه فان ذلك قد عاد عليه وعلى يوغسلافيا بالخير العميم فقد صار الرجل وظل عملاقا داخل بلده وفى الساحة الدولية بينما ظل رفاقه من قادة الاحزاب الشيوعية الذين زاملوه فى الكومنترن ومن بعده الكومنفورم اقزاما لا تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا . وقد أسهم بعض من هوءلاء فى تصعيد حدة الخلاف بين بلغراد وموسكو وفى الوقيعة بين ستالين وتيتو وكان على رأسهم ديمتروف الذى نصبه الجيش الاحمر فى عام ١٩٤٤ حاكما مطلقا على بلغاريا بعد جلاء الالمان منها وكان العداء مستحكما بينه وبين تيتو الذى علا شأنه نتيجة لقيادته الشخصية للنضال المسلح ضد الفاشيين الايطاليين والنازيين الالمان وضد قوات الجنرال ميخائيلوفتش الذى كان يقف من ورائه تشرشل ويحظى بمعونته .وكان معروفا ان زعماء الاحزاب الشيوعية فى دول شرق اوربا يتسابقون لنيل رضاء ستالين ويتنافسون فى تقديم فروض الولاء له ويتقربون اليه زلفى ،خوفا وطمعا . وكانوا جميعا يلتقون عند بغضهم لتيتو ويتآمرون عليه بافتراء الاكاذيب التى كان يستمع لها ستالين باذن صاغية .. وكان هذا كله أذن ولكنه لم يكن بالطبع أذن خير .

وكان حال اولئك الزعماء مع تيتو كحال القوم الذين عناهم ابو الاسود الدوءلي :

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا شأوه

فالقوم اعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها

حسدا وبغيا انه لدميم

وظل ستالين يعادي تيتو ويوءلب عليه الشيوعيين منذ انفصله من حظيرة الكمينفورم فى يونيو من عام ١٩٤٨ والى حين وفاته هو فى مارس من عام ١٩٥٣ ،ولم يكتف بذلك بل قطع علاقات الاتحاد السوفيتى الدبلوماسية مع يوغسلافيا واستمرت القطيعة بين الدولتين الى ما بعد وفاة ستالين بثلاث سنوات عندما تبين لخروشوف ورفاقه ان شبح المارد قد انزوي وولي الى ما غير رجعة ... ومن قبل كان خروشوف

وزمرته يعملون بين يدى الطاغية كما كان يعمل الجن والزبانية بين يدى نبى الله سليمان العاتيه ويسهرون على خدمته كما كان يسهر الشياطين كل بناء وغواص .

وقد أحدث ستالين بطرده لتيتو من حظيرة الكمنفورم شرخا غائرا فى صرح الشيوعية الدولية لم يقف اثره عند يوغسلافيا وحدها وانما تعداه الى العالم الثالث حيث كان من ثماره بروز معسكر دول عدم الانحياز الذى كان تيتو أحد اضلاع بنيته الثلاثه بجانب نهرو وعبد الناصر . وقد كان هو اول المستفيدين من قرار فصله فقد مهد تحديه لستالين وثباته امام صلفه وطغيانه واستخفافه بقرار طرده الطريق امامه ليظهر كبطل ساد المسرح السياسى الدولى لفترة جاوزت الثلاثين عاما هى سنوات حكمه لبلده . ولولاء سوء تقدير فرعون روسيا وحماقته لمضى تيتو وولى غير ماسوف عليه كغيره من الحكام الذين ابتلى الله بهم شعوب البلقان .

ولم يكتف تيتو بمجرد الصمود امام الحملات الجائرة عليه والدفاع عن نفسه فقد رد الصاع صاعين وقاد حملة مضادة شرسه ضد الاتحاد السوفيتى وضد ستالين ومواليه وقام برحلات عديدة خارج بلاده كانت اغلبها لدول بلاد العالم الثالث يبصر زعماءها بحقيقة وعودالسوفيت وادعاءاتهم ويحذرهم من مغبة الانضمام لاى من الكتلتين الدوليتين المتنازعتين بل ويهمس فى آذان بعضهم بضرورة استغلال ظروف الحرب الباردة لكسب اكبر قدر من المعونات المالية والاقتصادية دون تفريط ينتقص من مظاهر السيادة او انزلاق يجر الى المحاور والاحلاف العسكرية او ارتباط يهدد مقومات الاستقلال .

وكان تيتو يحرص على ان تتخذ دول عدم الانحياز موقفا وسطا عدلا بين روسيا وامريكا ذلك انه كان يخاف ان تفرط احداهما او تطغى ان تحوّل ميزان القوى لمصلحتها . وقد ذكر الصحفى المصرى الشهير الاستاذ هيكل فى كتابه بالانجليزية "عبد الناصر والعالم" ان تيتو روى للرئيس عبد الناصر طرفا من اخبار موءتمر يالتا وكيف ان ستالين وتشرشل وروزفلت جلسوا معا يرسمون خريطة ما بعد الحرب ويقسمون العالم الى مناطق نفوذ لهم وكيف ان الروس لم يكونو ليسمحوا للامريكيين بالتغلغل فى يوغسلافيا كما لم يكن لهوءلاء ان يسمحوا للروس بالتمتع بحرية التحرك الملاحى فى

البحر الابيض المتوسط عبر الموانىء اليوغسلافيه الواقعة على الادرياتيك ومن هنا كان حرص تيتو على التمسك بموقف عدم الانحياز الذى ليس هو سبيل يوغسلافيا الى السلام فحسب وانما هو الاساس الحقيقى لاستقلالها وسلامتها . كما اشار هيكل الى ان تيتو كان يخشى انتهاء الحرب الباردة بنفس الدرجة التى كان يخشى استمرارها ،فبقدر خوفه من تصاعد الحرب الباردة وانقلابها الى ساخنة كان خوفه من تفاهم الروس والامريكان .

وكان السودان محل اهتمام تيتو الخاص ولم يبخل بالنصح على زعمائه فى العهود الثلاثة التى تلت الاستقلال ،الحزبيين منهم والعسكريين . وقد ابدى قلقه واشفاقه علينا عند زيارته للخرطوم بعد قيام ثورة مايو ونصح بعدم الاندفاع فى معاداة امريكا وعدم المبالغة فى صداقة الروس . ولكننا لم نستبين النصح الاضحى الغد .

وفى الواقع فان ارتباطنا بالروس الذى تصاعد وتفاقم فى الشهور التى تلت قيام ثورة مايو والتى سبقت محاولة الشيوعيين الاستيلاء على السلطة ،قد فوت علينا فرص الاستفادة من كثير من المعونات والقروض الغربية التى كنا فى امس الحوجة لها حيث شح مدخراتنا من العملات الصعبة الضرورية لعمليات التنمية .

ولعل المجال الاقتصادى هو اكثر الساحات التى تظهر فيها آثار البصمات السلبية للحركة الشيوعية العالمية على بلادنا ،فقد لعب الحزب الشيوعى السودانى منذ الاستقلال وبتوجيه مباشر من السوفيت وبتأثير غير مباشر من اجهزة الدعاية والاثارة لتنظيمات وواجهات الحركة الشيوعية العالمية دورا خطيرا وضارا فى حرماننا من استغلال ظروف الحرب الباردة كما فعل غيرنا وفى الاستفادة من المعونات الاقتصادية والفنية المعروضة علينا من امريكا ومن دول الغرب ومن المؤسسات والمصارف الدولية . فقد كنا نهاجم تلك المعونات والمؤسسات رغم حوجتنا الماسة لكل عون ،ونثير الشبهات حولها على أساس انها لا تخدم تصنيع السودان وانها تتضمن شروطا تحد من حريتنا الاقتصادية وانها تتنافى مع قرارات مؤتمرات التضامن والسلام التى كنا نزعم ان شعبنا التزم بها حيث انها كانت من صنعنا وعلى اساس انها تمكن العسكرية الامريكية من استغلال مطاراتنا بل والشوارع التى وعدت المعونة الامريكية بتعبيدها ... الخ الترهات

والافتراءات التي حشى بها الروس عقولنا والتى صدرناها بدورنا لعقول بعض قادة الشباب والاحزاب الذين وثقوا بنا .

ونجح الروس فى حرمان كثير من بلاد العالم الثالث من الاستفادة من معونات الغرب بالتشكيك فى جداوها وفى اعتبارها نافذة يطل من خلالها الاستعمار الحديث ومدخلا . وقد سخروا لذلك واجهات جديدة للحركة الشيوعية العالمية استعاضوا بها عن الكمنفورم الذى عجز عن خدمة مآربهم . وكان على رأس هذه الواجهات اتحاد الشباب الديمقراطى العلمى واتحاد الطلبة العالمى ومجلس السلم العالمى واتحاد نقابات العمال العالمى وهيئات التضامن وجمعيات القانونيين والصحفيين الى آخر القائمة . وظلت هذه التنظيمات ولا تزال تدعو للمؤتمرات الدولية وللمهرجانات العالمية الفنية والرياضية وتقدم البعثات التعليمية . وان كان اثرها قد ضعف ووهن الان الا انها كانت سببا فى اغراء كثير من الشبان والشابات والطلبة والطالبات للسير تحت رآية الاحزاب الشيوعية فى الخمسنات والستينات بل واوائل السبعينات.

وبجانب نشاط هذه التنظيمات والواجهات العلمية كان هناك النشاط المستتر الذى يقوم به الدبلوماسيون السوفيت ورفاقهم من موظفي سفارات وقنصليات الدول الشيوعية الاخرى الذين خرجوا بعد الحرب من ديارهم بطرا ورئاء الناس يبشرون بالدعوة للشيوعية ويكيدون للحكومات التى اعتمدت تمثيلهم مستغلين الحصانة الدبلوماسية والامتيازات التى تقررها المواثيق الدولية والحماية التى يكفلها العرف الدولى المستقر

وبجانب الاضرار التى الحقتها الحركة الشيوعية العالمية بالسودان عند مخاطبته له كبلد نام مستقل فهناك الاذى الذى اصابه منها بوصفه جزءا من الوطن العربى .

ولعل اكثر مواقفها تأثيرا عليه بصفته الثانية هذه موقفها من المسألة الفلسطينية التى كانت منذ صدور قرار التقسيم فى عام ١٩٤٧ والى يومنا هذا القضية الاولى التى هزت الحياة فى المنطقة العربية بأسرها وقلبت موازينها وزلزلت كيان أنظمتها السياسية ونقصت ارضها من اطرافها بما لم تحدثه قضية مثلها .

وقد نجح السوفيت ،والى حد كبير ،فى التنصل من مسئولية المساهمة فى نشوء تلك المشكلة وفى تأزيمها وتعقيدها واستطاعوا

عن طريق اجهزتهم الدعائية المثابرة وعن طريق تدليس الاحزاب الشيوعية العربية الموالية القاء تبعة إثقالها على الولايات المتحدة وتحميلها وبريطانيا كل اوزارها ٠

وفى الواقع فان الروس يتحملون قدرا كبيرا من مسئولية خلق دولة اسرائيل وفى توطيد دعائم بنيتها الاقتصادية وتثبيت ركائز منعتها العسكرية ،وهو قدر يكاد يقارب نصيب امريكا وقسط بريطانيا من تلك المسئولية ،اذ لا تقتصر مسئولية الاتحاد السوفيتى على مجرد رفع الاصبع في الجمعية العامة للامم المتحدة تأييدا لقرار تقسيم فلسطين ولا على مجرد الاعتراف بقيام دولة بنى صهيون الذى صدر بعد بضعة اشهر من الموافقة على التقسيم وانما تكمن مسئوليته في انه كان يقف وراء التقسيم ويدعو له ٠ وليس صحيحا الزعم بأنه كان مكرها على قبوله حيث لم يكن هناك بديل له او ظهير ٠

واقع الامر ان الاتحاد السوفيتى لم يشترك فى صياغة القرار وحسب وانما اسهم فى هزيمة القرار المناوىء للتقسيم فى المرحلتين اللتين اجتازهما ذلك القرار ٠ فقد كانت هيئة الامم المتحدة قد اقرت فى منتصف مايو من عام ١٩٤٧ تشكيل لجنة من احد عشر عضوا لتقديم توصياتها حول مستقبل فلسطين بعد ان طلبت بريطانيا بوصفها دولة الانتداب عرض الامر على الجمعية العامة ٠ وقد حدث خلاف حاد داخل تلك اللجنة وانحازت تشيكولوفاكيا التى كانت تمثل المعسكر الاشتراكى الشرقى الى جانب الدول الضالعة مع امريكا والتى كانت تطالب بالتقسيم وكانت النتيجة ان تقدمت اللجنة بتقريرين ،تقرير الاغلبية الذى ينص على التقسيم وقد ايدته كل من كندا وغواتيمالا وارجواى وبيرو وهولندا والمكسيك وتشيكوسلوفاكيا وتقرير الاقلية الذى طالب بقيام دولة توءسس على النظام الفدرالى او الاتحادى وقد ايدته كل من الهند ويوغسلافيا وايران ٠

ولم تشأ تشيكوسلوفاكيا ،بناء على تعليمات الاتحاد السوفيتى ان تقف على الحياد كما فعلت استراليا وانما اصرت على احتضان قرار التقسيم ٠

وكذلك كان الحال عندما عرض الامر على الجمعية العامة فى فى التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧ فقد صوت الاتحاد السوفيتى الى جانب التقسيم وكذلك فعلت الدول التى كانت تشير فى فلك الاتحاد

السوفيتي من اعضاء الجمعيه العامة فى
تلك الدورة وهى روسيا البيضاء واكرانيا ،وبولندا وتشيكوسلوفاكيا
وقد كان موقف الاتحاد السوفيتي وربائبه مطابقا تماما لموقف
امريكا وصويحباتها . ولم يشأ الاتحاد السوفيتي ان يقف مع كتلة
الدول العربية والدول السبعة التى ساندتها رفضا لقرار التقسيم اوعلى
الاقل ان يمتنع عن التوصيت كما فعلت بريطانيا وتسع دول اخرى .

وثمة دليل على تعاطف السوفيت المسبق مع اليهود وحرصهم على
انجاح قرار التقسيم توطئة لاعلان قيام دولة اسرائيل ما ذكرته
قولدا مايير فى كتابها الذى سردت فيه قصة حياتها اذ قالت انه
قد " تبين لنا من خلال المداولات التى جرت فى الامم المتحدة طيلة
خريف عام ١٩٤٧ مساندة الكتلة السوفيتيه لنا لاسباب منها اننا
مثل الروس قد قدمنا كثيرا من الضحايا اثناء الحرب واننا مثلهم
قد مسنا الضر على ايدى النازيين وفى هذا ما يشفع لنا ويبرر،فى
نظرهم ،اصرارنا على قيام دولة خاصة بنا " . ومما يدعم هذا
القول سماح الاتحاد السوفيتي لمواطنيه من اليهود بالهجرة لاسرائيل
وباعداد كبيرة على دفعات متتالية ومتواترة .

ولا نتجنى على السوفيت ان قارنا بين موقفهم هذا الذى
اشارت اليه رئيسة وزراء اسرائيل وبين موقف بريطانيا التى يحاول
الروس جاهدين القاء اللوم عليها وتحميلها وزر قيام دولة الصهاينة
فقد كان على رأس وزارة الخارجية البريطانية انذاك الوزير العمالى
مستر بيفن الذى كان يكرر القول بأنه لا مسوغ البته لقيام دولة
اسرائيلية فى فلسطين بعد هزيمة دول المحور وانتصار الحلفاء
وما تبع ذلك من استقرار لليهود فى مواطنهم الاوربية الاصلية
حيث انتهت سياسة اضطهادهم وزالت مظاهر الكراهية للسامية ....
وبالفعل فقد امتنع الانجليز عن التصويت الى جانب قرار التقسيم بينما
ايده الاتحاد السوفيتي وزمرته كما سلف القول .

ولعلنا لا نسرف ونشتط ان قلنا ان دور المعسكر الشرقى فى بقاء
دولة اسرائيل على قيد الحياة فى شهورها الاولى يفوق دور امريكا
فقد كان وضع القوات العربية عند بداية القتال فى منتصف مايو من
عام ١٩٤٨ افضل بكثير من وضع القوات اليهودية ولولا الامدادات
العسكرية التى انهالت على اسرائيل من بعض الدول الشيوعية وغيرها

فى فترة الاربعة اسابيع التى تلت وقف اطلاق النار والذى عرف بالهدنة الاولى لدفنت الدولة الباغية فى ثوب عرسها ولدخلت فى زمرة القرى الظالمة التى عفت اثارها ولم يبق منها غير عروش خاوية وبئر معطلة وقصر مشيد .

ودفعا لشبهة التحامل وتهمة الافتراء نستنجد مرة أخرى برئيسة الوزراء قولدا مايير التى ذكرت فى كتابها آنف الذكر والذى دفعت به الى المطبعة فى عام ١٩٧٥ :

"... ومهما كان من أمر التحول الذى طرأ على موقف السوفيت من دولة اسرائيل فى العقدين ونصف الاخيرين فان الصدق يقتضينا أن نقرر انه لولا الأسلحة والذخيرة التى اشتريناها من تشيكوسلوفاكيا ونقلناها عبر يوغسلافيا وغيرها من دول البلقان فى الايام السوداء الحالكة من بداية الحرب لما أمكننا ان نقف ونثبت على أقدامنا فى الفترة التى سبقت تحول المد لمصلحتنا فى يونيو ١٩٤٨ فقد كان جل اعتمادنا ،فى الستة آسابيع الاولى لحرب الاستقلال ،على القذائف الرشاشة والطلقات بل والطائرات التى تيسر للهاغاناه شراؤها من دول أوربا الشرقية فى الوقت الذى فرضت فيه الولايات المتحدة الامريكية الحجر على مبيوعات السلاح وشحنها الى الشرق الاوسط ... وستبقى الحقيقة قائمة رغم محاولات طمسها بأن الاعتراف السوفيتى بدولة اسرائيل فى الثامن عشر من مايو عام ١٩٤٨ كان ذا اهمية عظمى لنا . فقد أمكن أن تلتقى الدولتان العظميان ولاول مرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عند مناصرة الدولة اليهودية ... وكان فى هذا دفع روحى ومعنوى عظيم لنا .

ولم يكن يملك تشيكوسلوفاكيا ولا آى من رصيفاتها من دول شرق أوربا أن تقدم على مد اسرائيل أو غيرها بالسلاح بعوض أو بلا عوض وبمقابل أو بغير مقابل دون استئذان سادة الكرملين ورضائهم بل لم يكن بمقدور تلك الدول أن تنتزع لنفسها زمام المبادرة فى مثل هذا الأمر .

ومما يثير الدهشة حقا أن الاتحاد الساوفيتى والدول الضالعة معه قد فعلوا فعلتهم النكراء هذه رغم أنف شروط اتفاقية الهدنة الاولى التى ترتب عليها وقف القتال والتى نصت فى البند الرابع منها على "عدم استيراد أى نوع من الأسلحة من قبل الطرفين المتحاربين " .

وقد التزم العرب بهذا الشرط وكذلك امريكا بينما تخطته آسرائيل

ومن ورائها المعسكرالشرقى مماأخل بميزان القوى العسكرية وأدى من ثم الى انتصار اسرائيل فى الجوله الثانية من القتال الذى استؤنف فى التاسع من يوليو عام ١٩٤٨ أى بعد شهر الا يوم واحد من وقفه ٠

وليس صحيحا مايقال اليوم تبريرا لقرار التقسيم من أنه كان القرار الوحيد الأمثل الممكن ٠ اذ كان هناك بالفعل ومنذ أبريل ١٩٤٦ بديل معروض للتقسيم وهو وضع فلسطين بعد انتهاء الانتداب البريطانى تحت وصاية هيئه الامم المتحدة لفترة يقرر بعدها الشكل النهائى لمستقبل ذلك البلد ٠

وقد رفض الاتحاد السوفيتى ذلك البديل زاعما انه مشروع يخفى مطامع أمريكا التى تريد ان تجعل من أرض فلسطين نقطة ارتكاز تخدم مصالحها الاستعمارية فى تلك المنطقة ٠ ولعله قد فات عليه أن يدرك أن قيام دولة للصهاينة من شأنه أن يحقق مصالح الامبريالية بأكثر من حالة الوصاية أو أى وضع آخر حيث ان الدعوة الصهيونية هى فى حقيقتها دعوة استعمارية وانه لايجوز النظر الى دولة بنى صهيون على أساس انها مجرد اداة للاستعمار ولا ينبغى مقارنتها بالدول الصغيرة التى تشابهها من حيث حيز الارض الذى تشغله أو من حيث تعداد السكان. فاسرائيل دولة لها مطامعها الاستعمارية الذاتية ولها مطامحها التوسعية التى لم تخفيها أو تقلقها منذ تاسيسها بل ومنذ ان كانت حلما يراود تيودور هرتزل وأملا يداعبه ٠ وهى ربيبة الحركة الصهيونية التى لعبت ولا زالت تلعب دورا رئيسيا فى تسيير دفة الحكم فى بعض البلاد الرأسمالية وخاصة فى امريكا والتى لها فلسفتها وايدلوجيتها المتميزة ٠

وبالطبع فان حقيقة الحركة الصهيونية العالمية واطماعها لم تكن لتخفى على السوفيت فالمكتبة الماركسية تزخر بالكتب التى تعرضت لها بالنقد منذ ان كانت طفلا يافعا بل منذ ولادتها فى نهاية القرن الماضى ٠ حتى الحركات اليهودية الاخرى التى تدثرت بثياب التقدم أوالتى كانت تنطلق من بعض مواقع الفكر الماركسى كحركة " البوندست " فى روسيا القيصرية لم تسلم من نقد لينين ومن وخزات قلمه الحاد ومن لذعات لسانه السليط ومن اتهاماته لها بأنها تخفى فى باطنها بذور الفكر الصهيونى وتعانى من مخلفات الاتجاهات البرجوازية ٠

وقد ترتب على تكييف الروس الخاطئ لحقيقة اسرائيل وتصويرها

على انها لاتعدو ان تكون دولة تابعة لامريكا ان ارتفعت بعض الاصوات التى تصفها اليوم أبواق الدعاية السوفيتية بالانهزامية وجهرت بالقول زاعمة ان صداقة امريكا هى مفتاح الحل لمشكلة فلسطين وانه مامن سبيل آخر لعلاج الأذى الاسرائيلى ووقف زحف الخطر اليهودى ورفع أثقاله الجاثمة صدر الأمة العربية الا بالتفاهم مع الولايات المتحدة الامريكية . ومن الجانب الآخر فقد ارتفعت بعض الاصوات التى تلوك الشعارات التقدمية ،وكنا من ضمن افراد جوقتها وفرقتها الموسيقية ، منادية بتركيز الحملة على امريكا وليس على اسرائيل بوصف الاخيرة مجرد لعبه فى يدى الاولى .

وما من تفسير لموقف السوفيت الغريب من قرار التقسيم الا الزعم بأنهم ربما كانوا يؤملون خيرا كثيرا ينالونه نتيجة للوضع الاستراتيجى الجديد فى الشرق الاوسط وانهم ربما ظنوا ان فى قيام الدولة الباغية مصلحة مؤكدة لهم ومنفعة ،وذلك على نقيض ما ظلت تردده أجهزة اعلامهم المقتدرة من انها لعنة وانها نغمة .

ورغم ان التغيير الذى طرأ على خريطة المنطقة لم يحقق لهم كل الاحلام التى كانوا يرجونها من وراء قيام دولة اسرائيل التى كان الظن انها ستكون بمثابة الواحة فى صحراء العرب يتسلل منها الفكر الماركسى الا أن ابليس الذى تقمص شخصية د الاس لم يخيب كل امالهم فقد صدق عليهم الظن بأن يسر لهم التسلل داخل بعض الدول العربية والتى كانت من قبل منطقة مقفولة محظور عليهم دخولها ،ومحرم عليهم ارتيادها ، فانتفخت جيوبهم بالمال الذى تساقط عليهم كالمطر فى مقابل السلاح الذى احتكروا تصديره ،وثمنا لقطع الغيار التى ظلوا يتحكمون فى عمليات امدادهما بما يحقق لهم اذعان الدول الصغيرة المتعاقده معهم ويكفل رضوخها لضغوطهم ومن ثم السير فى ركابهم وتحت لوائهم .

ولكن تلك المكاسب التى حققتها الدبلوماسية السوفيتية نتيجةلممارسات الدولة اليهودية العدوانية كانت مكاسب مؤقتة وعلى نطاق العلاقات الرسمية مع بعض الدول العربية وعلى رأسها مصر . ولم يكن الامر كذلك بالنسبة لنفوذ السوفيت وسط الحركة الشعبية فى تلك البلاد فقد بدأت الغشاوة تنجلى عن الابصار وبدأ كثير من المثقفين العرب يدركون حقيقة مرامى السياسة السوفيتية ويعجبون لمفارقاتها ويتساءلون عن اسباب استعجال الروس الاعتراف بقيام دولة اسرائيل رغم مابدا من تجاوزات

واتجاهات عدوانية للصهاينة فى الفترة القصيرة التى تلت صدور قرار التقسيم فى ٢٩ من نوفمبر ١٩٤٧ والتى سبقت اعلان قيام دولتهم فى منتصف ليلة الرابع عشر وبداية صبيحة الخامس عشر من مايو ١٩٤٨والتى تمثلت فى احتلال عصابة الهاغانة الارهابية لمدينتى يافا وعكا منتهكين بذلك قرار التقسيم الذى وضع المدينتين ضمن حدود الدولة "العربية" العربية والتى جسدتها مذبحة ديرياسين التى راح ضحية لها فى التاسع من ابريل ١٩٤٨ مائتان واربعة وخمسون رجالا عزلا واطفالا غرلا ونساء ثيبات وابكارا على أيدى أرغون وشتيرين الارهابيتين .

ويتساءلون ايضا ... ماذا فعل الاتحاد السوفيتى لتأكيد تطبيق قرار التقسيم وتنفيذه بحذافيره وهو الذى ينص على قيام دولة عربية بجانب دولة اليهود ... وكيف ارتضى لنفسه ان يتعايش وهو احد الدولتين العظميين مع حقيقة ان العرب قد اخرجوا من ديارهم عنوة وقسرا ،ليفترشوا أرض المخيمات التى كانت لهم ملاذا ونزلا حيث لم يجدوا مرفقا بديلا ولا سترا ... وكيف يسمح مع كل ذلك بهجرة اليهود السوفيت المتواصلة لاسرائيل لتتفاقم ماساة العرب وتزداد حياتهم نكدا وعسرا .

وهل يكفى ان يقول اليوم انه لا يعترف بضم الاراضى التى اغتصبتها الدولة اليهودية وانه لا يلتزم الا بالحدود القديمة التى تشير اليها الخرائط المعلقة بجدران الكرملين والجاثمة على صدور حيطان مكاتب وزارة خارجيته والتى وضعت على أساس قرار التقسيم الصادر فى عام ١٩٤٧ والتى لا يأبه بها احد ولم تعد تساوى شيئا .

ويزداد العجب وتتوالى التساؤلات التى تفضح افك السوفيت وممارساتهم التى ليس آخرها موقفهم من منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى لعرب فلسطين . فبينما يعترفون بدولة اسرائيل ظلوا يرفضون ولا زالوا اعطاء الصفة الدبلوماسية الكاملة لبعثة المنظمة المقيمة بعاصمة بلادهم . وقد اضطروا اخيرا وبعد مضى مايقارب الخمسة وثلاثين عاما من اعترافهم باسرائيل الى رفع مستوى مكتب المنظمة ولكن لدرجة تتدانى كثيرا عن وضع السفارات وامتيازاتها .

ولامساغه بالطبع للادعاء بأنه ليس للعرب دولة فى فلسطين تبرر اعتماد ممثليها حيث . ان التقسيم الذى أيده الاتحاد السوفيتى وباركه ينص على قيام تلك الدولة ولكن اسرائيل تقف حجر عثرة

امام تأسيسها . وقد رفض السوفيت دون استيحاء ورغم الضغــــــوط المتواصلة والمحاولات المتكررة الاذن لممثل المنظمة بتقديم اوراق اعتماده مباشرة الى وزارة خارجيتهم وأصروا على أن يكون ذلك عن طريق لجنة التضامن الافريقية الاسيوية السوفيتية ... كل ذلك كــى لا يغضبوا أسرائيل ومن ورائها امريكا وحتى لا تستغــــل هــــذه وربيبتها الأمر ذريعة لرفض الاشتراك مع الاتحاد السوفيتي في اى مؤتمر دولى أو مائدة مستديرة حول فلسطين . وكان السوفيت الذين فقدوا الكثير من نفوذهم السياسى فى المنطقة يتوقون للمساهمة فــى أى مؤتمر لحل القضية المستعصية حتى لاتنفرد امريكا بحل النـــزاع وتستأثر بفضل تسويته وحتى يظهروا بمظهر الند للأمريكان ... هذا علما بأنهم سبق أن أوعزوا لبعض دول أوربا الشرقية ان يتــــم اعتماد ممثلى المنظمة بطريق رسمى وعن طريق وزراء خارجياتها .

وتأتى أحداث لبنان الاخيرة لتزيل ماتبقى من ماء الحياء عن وجه السوفيت ان كان قد بقى منه شيئا بعد مآ سيهـــم فــــى أفغانستان وبولندا . فقد اكتفوا بترديد التهديدات الجوفاء ،التى لم تكن لتوقف مجازر الفناء ،أو تضع حدا لشلالات الدماء ،والتــــى كانت كصواريخهم بأرض البقاع الفيحاء لاتحدث أثرا ولا تخيف احـــدا واسرائيل تمضى فى طريقها الذى اختطته لا يهمها مضغ الماء ولا طحن الهواء . وان كانت روسيا قد استطاعت ان تتنصل عن مغبه افعالها وتلوذ من اخطائها وتحتمى بأخطاء غيرها وان تنحى باللائمة على المعسكر المناوئ لها حتى بالنسبة للآثام التى هى شريكة فيهـــا بل وتستغلها لمنفعتها كشأنها مع قضية فلسطين ،فان استغلالهـــــا للمشاكل التى يقع عبؤها على كاهل اعدائها من الدول الكبرى يصبــح أمرا منطقيا ومن باب أولى . فقد استغلت اخطاء السياسة الامريكية التى كان قد سنها وسار على دربها مهندسها جون فوستر دالس ومــن والاه فى الخمسينات والستينات ،فعمدت الى التقارب مع بعض البـــلاد العربية وخاصة مصر . ومدت جسور الود مع عبد الناصر بعد ان تبينت مدى قوة نفوذه الطاغى وسط الأمة العربية والذى لا يجارى ،وبعـــد ان كانت قد ناصبته العداء واتهمته بالعمالة لامريكا .

وكان السادس والعشرون من يوليو من عام ١٩٥٦ يوم عـــرس روسيا فى مصر وفرحتها الكبرى فقد أعلن جمال عبد الناصر فى ذلـــك

اليوم تأميم قناة السويس . وجاء ذلك الاعلان بعد أسبوع واحد وبالتمام من سحب البنك الدولي المفاجئ لعرضه السابق بالمساهمة فى تمويل عملية بناء السد العالى .

وكان تأميم القناة نقطة تحول حادة فى مسار علاقات مصربدول الغرب . وبادر الاتحاد السوفيتى ،وهو النهاز للفرص ،باستثمارالموقف وتقدم بعرض بديل لقرض البنك الدولى سارع عبد الناصر بقبوله .... وكان ذلك بداية لعلاقات وطيدة بين حكومتى مصر وروسيا ظل الروس يقطفون ثمارها مدة عقد ونصف من الزمان حققوا خلالها أرباحا طائلة من وراء صفقات الأسلحة مع مصر و بعض الدول العربية ومن بينها السودان والتى كان المدخل لها موقفهم من تمويل السد العالى

ويكفى أن نشير الى ان قيمة القرض الروسى لتمويل السد العالى لم يتجاوز المائة وعشرة مليونا من الجنيهات دفع على قسطين بينما بلغت قيمة مبيوعات الروس للسلاح فى سنة واحدة أكثر من خمسة بلايين من الدولارات كان نصيب البلاد العربية من صفقات شرائها النصيب الاكبر .

ولا يقتصر الأمر على مجرد الفوائد المالية فقد تيسر للاتحاد السوفيتى وضع أقدامه وترسيخها فى منطقة كان محظور عليه ارتيادها اذ لا زال يتمتع ،بالرغم من تأزم علاقاته مع مصر وفقده لاراضيه السياسية فيها وفى السودان والصومال ،بوضع متميز فى ثلاثة أقطار عربية هى اليمن الديمقراطية وسوريا وليبيا وتكاد اثنتان اخريتان هما الجزائر والعراق تميلان اليه بأكثر مما تفعلان مع امريكا .

والغريب فى الامر أن تيتو بالرغم من مبادرة الاتحادالسوفيتى له بالعداء كان من الشخصيات التى لعبت دورا كبيرا فى التأثيرعلى عبد الناصر لقبول عرض السوفيت بتمويل السد كما كان هو الذى نظم سفر عبد الناصر المفاجئ لموسكو اثر استيلاء الجيش العراقى بقيادة عبد الكريم قاسم على السلطة فى يوليو ١٩٥٨ ويسر عقد الاجتماع التاريخى بين الزعيم المصرى وخروشوف الذى اثار اهتماما دوليا عظيما وقتها .

ومن سخرية المفارقات أيضا ان الصين عن طريق رئيس وزرائها شوان لاى كانت اول من مهد الطريق .واول من اسهم فى توطيد

العلاقات بين عبد الناصر والرفاق السوفيت . وكان ذلك بالطبع قبل تأزم الموقف بين الصين وروسيا فى اوائل الستينات . وقد كان المدخل لتلك العلاقات التى اذدهرت واستمرت الى مابعد وفاة عبد الناصر ببضع سنين صفقة الأسلحة التى عقدت فى براغ بين مصر والاتحاد السوفيتى فى صيف عام ١٩٥٥ والتى كان شوان لاى مهندس اخراجها . فقد كان هو الذى التقط تلميح عبد الناصر برغبته فى تسليح جيشه وكان ذلك عند اول لقاء يتم بينهما فى رانجون عاصمة بورما عندما كانا فى طريقهما لحضور مؤتمر باندونج وقد بادر بابلاغ تلك الرغبة للروس وأقنع زعيمه ماوتس تونج بضرورة مساندة مصر وقد استجاب الرئيس الصينى لرغبة رئيس وزرائه وعمل على حمل السوفيت على الموافقة على صفقة السلاح التى أحدثت دوياً هائلا فى الساحة الدولية التى كانت بداية لتحولات خطيرة فى المنطقة العربية .

وقد حاول الرفاق الصينيون تدارك خطئهم بعد مابدا لهم من السوفيت مالم يكونوا يحتسبون وبعد أن تبينوا سيئات ماكسبوا منهم فعمدوا الى مخاطبة عبد الناصر وتبصيره بما خفى من مرمى السياسة السوفيتية وتحذيره من مغبة الاتكال على الروس والاعتماد على وعودهم .ولكن عبد الناصر كان قد قطع شوطا بعيدا فى معاداة امريكا ودول الغرب بحيث لم يصبح ثمة خيار أمامه غير مجاراة السوفيت ومحاولة حملهم على تنفيذ ماالتزموا به واستخلاص القدر المتيقن من مساعداتهم .

وقد نشطت الفلول فى مصر والرفاق فى السودان وقادرا الحملات الدعائية ضد الصينيين واتهموهم بكل الصفات السياسية القبيحة التى يذخر بها القاموس الشيوعى السياسى .

وقد أثمرت حملتهم تلك فى صرف الانصار عن اتهامات الرفاق الصينيين للسوفيت الذين ظلوا يتمتعون بمركز ممتاز فى مصر وعند الشعوب العربية التى ارتضت قيادة الرئيس عبد الناصر الى ان حدثت هزيمة عام ١٩٦٧ حيث بدأ الناس يتساءلون عن حقيقة موقف السوفيت ويتعجبون من امرهم اذ لم يهبوا لنجدة مصر ابان قمة ازمتها كما كان الظن والأمل وكما كانوا هم يزعمون ويوحون قبل بداية الحرب مع اسرائيل .

ولكن بالرغم من مأساة الروس فى حرب الستة أيام وبالرغم من

تقاعسهم في الساعات الحرجة الحاسمة والذى كان مظهره الحاج سفيرهم بمصر على عبدالناصر بالدعوة لوقف اطلاق النار الذى كان يعنى التسليم بشروط اسرائيل ،بالرغم من كل ذلك فقد واصل عبد الناصر مكرها ، ارتباطه بالسوفيت مما اسهم فى تخفيف حدة النقمة عليهم وقد عملوا جادين لاستعادة رضائه وذلك بتلبية كثير من طلباته واحتياجاته العسكرية التى كانوا قد سباطوا من قبل فى ارسالها لمصر . ولعل الرجل قد غفر لهم فى شهوره الاخيرة ماحاق به منهم. ومهما كان من فرط عداء الصين للاتحاد السوفيتى ومهما كان من أمر الانقسام الكبير الذى حدث فى معسكر الشيوعية العالمى عام ١٩٦٣ نتيجة الخلاف بين الحزبين الحاكمين فى روسيا والصين فان نفوذ السوفيت فى الشرق العربى لم يضعف ولم يهن بالقدر الذى كان يخشاه الروس أنفسهم ،هذا اذا أغفلنا الانقسامات والهزات الصغيرة غيرذات الشأن التى حدثت داخل الأحزاب الشيوعية العربية ومنها الحزب الشيوعى السودانى الذى فقد نفرا قليلا من أشد اعضائه صلابه واكثرهم تواضعا ،انسلخوا من عضويته وكونوا منبرا شيوعيا مستقلا يؤيد وجهة نظر الرفاق الصينيين ويدين بشدة وعنف السوفيت .

ولعل من الأسباب التى جعلت السوفيت يحتفظون بولاء الأحزاب الشيوعية العربية لهم ،بجانب غباء قيادات تلك الأحزاب وتحجرها وانعزالها ،أن الرفاق الصينيين الذين هم اكثر عددا واعز نفرا من الروس اكتفوا من بمخاطبة تلك القيادات وبشرح أسس الخلاف بينهم وبين السوفيت الذين وصفوهم ،وبحق ،بأنهم شوفينيون متعصبون يعانون من عقدة الدولة الكبرى ويبغون السيطرة والهيمنة بل واستعباد الناس. ولم يشأ الصينيون اللجوء للأساليب الملتوية التى لجأ لها الروس للحفاظ على ولاء تلك القيادات لهم ... ولعلها حكمة الصين واصالتها هى التى جعلت رفاقها ينأون بأنفسهم عن التدخل فى شئون الأحزاب الشيوعية الاخرى تمسكا بالماثورة التى ظلوا يرددونها من أن الثورة ظاهرة لايمكن تصديرها ولا استيرادها ... ولعل ذلك التراث ولازال ،هو السياج الذى عصمهم من المزالق والذلل ،ومن الخوض فى الطين والوحل ،ومن السقوط فى المستنقع والدرك الأسفل ،الذى سقط فيه آخرون استباحوا حرمات دول صديقة ،وانتهكوا سيادة أخرى حليفة وتنكروا لمواثيق وصداقات كان الظن أنها وطيدة .

وكان السودان من الدول التى شملتها ترتيبات طليعة الشيوعية العالمية وتخطيطاتها النهمة الجائرة ،وامتدت اليها أياديها الآثمة الشريرة . فقد وثقت بالسوفيت ،قيادته الجديدة ،التى استقبلتهم فى مايو بأذرع مفتوحة ،وبقلوب ساذجة بريئه ... فكان جزاؤها جزاء سنمار ... حيث السم فى الدسم ،وحيث ينبوع الدم الذى تفجر في الدار التى كانت للضيافة والكرم ،فانقلبت دار فناء وعدم ...وكانت المأساة وكانت الحسرة وكان الندم .

ولم تكن سلطة مايو هى الوحيدة من بين حكومات السودان السابقة التى ولت وجهها شطر موسكو ،وان كانت اكثر سالفاتها اسرافا فى الثقة ،وتبذيرا فى الود ،بل وتفريطا فى المصلحة ... فقد حرصت حكومة الاحزاب المتصالحة المؤتلفة ،التي اغتالها مايو على تحسين علاقاتها بالروس واتجهت نحوهم لتزويدها بالسلاح .. ولعله من مفارقات القدر أو سخريته أن تشهد الساعات الفاصلة بين ليل الرابع والعشرين من مايو عام ١٩٦٩ وبين صبيحة اليوم الذى تلاه سفر وفد عسكرى سودانى وعلى مستوى عال الي موسكو لاتمام صفقة سلاح كانت المحادثات بشأنها قد بدأت قبل بضعة شهور ... ولم يكن السوفيت فى مثل غفلة حكومة الأحزاب فقد كانوا يعلمون علم اليقين مايدبر بليل للاطاحة بتلك الحكومة ، وكانوا قد تحوطوا لكل احتمال . فان نجح التدبير فنعم الحال ،وان فشل فليس ثمة مايضير ويغلق البال . فقد أعدوا لا ستقبال الوفد العسكري بمطار فينوكوفو أحسن استقبال ،ليكون ذلك شاهدا على عدم صلتهم بل ومعرفتهم بما يدور في الخرطوم من تخطيط للاطاحة بالسلطة التى كانت تغط فى النوم جاهلة بما ينتظرها من مصيرومال ومايدبر لرجالها من اعتقال ،ولها من وأد واغتيال .

وكان طبيعيا ان يتطلع قادة مايو في ذلك الوقت الي موسكو ويرنو اليها بالابصار فقد تزاملت عوامل كثيرة ومتباينة دفعتهم الى ذلك المسار .

وكان طبيعيا أيضا ان يتجاوب معهم السوفيت ،ويستقبلون بالاحضان الثورة التي بادرت باعلان صداقتها لهم ومعاداتها للاستعمار .

وكان القادة الجدد شبابا ينشدون رفعة البلاد التي لم تكن تعنى

عندهم الا أمرين .تنمية الموارد المطمورة الزاخرة وتقوية القوات المسلحة التى خرجوا من بين صلبها واترابها .

وكان قد ترسب فى العقول ان الروس وحدهم من بين الدول الكبرى القادرون على تحقيق المطلبين ،وانهم دون غيرهم الحريصون على تدعيم استقلال الشعوب وتطوير حياتها بطريق تقدمى ومطرد . وكانت لدى الفتية قناعة بأن دول الغرب هى التى تعوق مسار التنمية ليس فى السودان فحسب وانما فى البلاد المماثلة فى أفريقيا وآسيا .وان تلك الدول لن تستجيب لمطلب اعادة بناء الجيش وتسليحه خشية فقدان وضعها الممتاز فى الساحة الاقتصادية وخوفا من زلزلة سيطرتها واحتكارها للسوق التجارية ،وحرمانها من مواقعهاالسياسية المكتسبة .

وكان هناك القاسم المشترك الأعظم بينهم وبين الروس وهو الاحترام المتبادل لعبد الناصر والتسليم بزعامته للمنطقة . ثم كان هناك ايضا موقف الزعامة الجديدة من الشيوعيين المحليين فبالرغم من حل الثورة لكافة الاحزاب الاان الحزب الشيوعى السودانى احتل موقعا مميزا تمثل فى قادته العسكريين فى مجلس قيادة الثورة رغم انهما لم يشتركا فى عملية اسقاط الحكم السلف بل رغم انسحاب العسكريين الشيوعيين من عضوية التنظيم السرى الذى واصل التخطيط لعملية الاستيلاء على السلطة وقادها بالفعل .
وكان انسحابهم هذا قبل اسبوعين فقط من ليلة الخامس والعشرين من مايو بعد ان كانوا قد قطعوا فى طريق الانقلاب شوطا بعيدا ،وبعد أن كانوا قد اسهموا فى الزج بآخرين فى المغامرة الخطيرة .

وتمثل وضع الحزب الممتاز ايضا ،فى ان نصيبه من عضوية مجلس الوزراء الذى أعلن عن تشكيله فى صبيحة يوم الانقلاب كان نصيب الأسد فقد كانت غالبيته من الاعضاء الذين لم تنقطع صلتهم به فمنهم نفر من قادته ،ومن بينهم من سبقت عضويته به ،وفيهم رفقاء الدرب المتعاطفين معه .

واغتنم الشيوعيون المشاركة فى الحكم فعملوا على الاحاطة بالسلطة الجديدة والظهور بمظهر المالك لها ،وكذلك فعل السوفيت الذين اسرفوا فى الثناء المستطاب على الثورة وفى قطع الوعود والالتزام بتلبية كافة احتياجاتها العسكرية وتحقيق برامجها

الاقتصادية والمالية الطموحة . وكان كل ذلك فى العلن بينما بدأ عبد الخالق محجوب السكرتير العام للحزب ،من فوره ،ومنذ الايام الاولى للثورة ،يعد للانقضاض على السلطة الجديدة والسيطرة عليها تماما . وكان يعاونه على ذلك اثنان من العسكريين كان يسرف فى الثقة بهما وفى تقدير مؤهلاتهما لتحقيق الهدف المنشود ،هما الصاغ هاشم العطا عضو مجلس قيادة الثورة والبكباشى حسن عثمان الشهير " بابوشيبه " وكان هذا ضابطا شجاعا ومغامرا يحظى بثقة رئيس مجلس قيادة الثورة وبعض معاونيه من اعضاء المجلس مما ييسر له فيما بعد تنفيذ مخطط الغدر . وقد استطاع عبد الخالق ان يقنع الرفاق السوفيت بامكانية تحقيق تخطيطه بل بحتمية نجاحه وكان هو قد ذهب لموسكو فى الاسبوع الاول من يونيو ،بعد بضعة ايام من نجاح حركة مايو ،وذلك لحضور الجلسات الاخيرة للمؤتمر العالمى للأحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد هناك .

وقد بارك السوفيت التخطيط الجديد وكان قد انفرد بمقابلة الرفيق سوسلوف منظر الحزب وفيلسوفه وعقد ،مكرها ،اجتماعات أخرى مع بوناماريوف سكرتير العلاقات الخارجية للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ومساعده رومانسييف رئيس القسم العربى بها .وكان عبد الخالق يحتقر الاثنين الاخيرين لا يحترم مقدرة اولهما الفكرية ولا يثق فى نزاهة كلب صيده وقد طلب السوفيت الحذر التام والاستعانة على قضاء الأمر بالكتمان . وقد صادف هذا المنحى الجديد لقيادة حزب السودان هوى فى نفوس الروس الذين كان يهمهم تثبيت اقدامهم فى السودان لسببين اولاهما ان وضع السودان الاستراتيجى فى افريقيا ييسر التسلل الشيوعى فى داخل القارة البكر التى لم تكن التيارات المذهبية والايدلوجية المعادية للماركسية قد تفاقمت فيها حينئذ .

وكان لدى الروس قناعة بأنه ليس ثمة مايعوق نشر نظريتهم الثورية فى أفريقيا ان تيسرت لهم قاعدة الانطلاق والوثوب .وحتى الاسلام الذى يعترفون له بأنه أشد الديانات مقاومة للفكر الماركسى لم يكن يمثل فى نظرهم خطرا على مخططاتهم هناك بمثل ما يفعل فى القارات الاخرى حيث ضعف جذوره الافريقية وتمسك الافارقة بظنهم ،بالقشور والمظهر دون اللب والمخبر وكانوا يدللون على زعمهم الباطل بالحزب الشيوعى السودانى الذى استطاع أن يحتل

مركزا سياسيا مرموقا ،فى بلد افريقى غالبيته الساحقة من المسلمين . وثانى الاعتبارات التى حدت بالسوفيت لمباركة التخطيط الآثم عدم اطمئنانهم لما يمكن أن يحدث في مصر بعد وفاة عبد الناصر الذين كانوا يعلمون مدى خطورة المرض الذى يعانى منه والذى لم يستجب لنصحهم له بضرورة الاهتمام بقيام مؤسسة للقيادة الجماعية تكون قادرة على مواصلة المسيرة التى مشى خطواتها بصحبتهم ،والتى اطمأنوا لها بعد لأى ومعاناة ،وبعد أن استطاع الرجل بصرامته وقوته وصلابته أن يزيح كل الحوائل والموانع التى أقاموها فى طريقه بل والصخور التي كانوا قد وضعوها امامه خاصة ابان تأزم علاقاته مع الشيوعيين العراقيين والسوريين . ولذلك كان يهمهم ان تكون في السودان حكومة موالية لهم تماما يستطيعون عن طريقها التأثير على أى خلف لعبد الناصر .

وقد استطاع الروس أن يقنعوا عبد الخالق بأن يكتفي بالاعداد لخطة الاستيلاء على السلطة وألا يقبل على التنفيذ الا بعد مشاورتهم وأخذ الاذن منهم بوصفهم أكثر قدرة على تبين الظروف الاقليمية والعالمية المناسبة .

ولم يكن الروس ليجرأوا على إضاءة الضوء الأخضر ايذانا بتنفيذ المخطط فى اثناء حياة عبد الناصر الذي كان يرعى ثورة السودان والذى توطدت علاقة الروس به كثيرا بعد شروعه فى اعادة بناء الجيش المصري وبعد أن تبين لهؤلاء مدي نفوذه العاتى فى المنطقة العربية رغم هزيمته في صيف عام ١٩٦٧ .

ويقينا فان الروس لم يأذنوا لعبد الخالق بالمغامرة الا بعد ان شعروا بضرورة الضغط على السادات رغم ان هذا كان قد وقع فى مايو ١٩٧١ ،وقبل أقل من شهرين من وقوع الانقلاب الشيوعى فى السودان ،معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى وذلك لان حاكم مصر استطاع بضربة واحدة ماكرة قاضية أن يطيح بعلى صبرى وصحبه الذين كان الكرملن ، يؤمل فيهم خيرا كثيرا .

وكان الروس يحسبون أن قيام حكم شيوعى في السودان من شأنه أن يعيد ميزان عقل السادات للوضع الذى تكون فيه كفتهم هى الراجحة .

أما بالنسبة لعبد الخالق فكان هناك عاملان جعلاه لا يكتفي بالوضع الممتاز الذى تحقق للحزب فى الإيام الاولى للثورة ،ودفعاه

لمحاولة الاستئثار باللقمة كلها دون مشاركة الاخرين كما يقولون.
احداهما موضوعى والاخر شخصى . أما الاول فقد كان اقتناعه بحق الحزب فى الانفراد بالسلطة وبامكانية الاستيلاء عليها عن طريق انقلاب مماثل . وكان كثيرا مايردد قول الشاعر :

أحرام على بلابلة الدوح ... حلال على الطير من كل جنس

وكان يقول ان امكن لستة من الضباط الصغار ،اكبرهم رتبة عقيد ،واحدهم مفصول من الجيش ،وبمصاحبة مدنى واحد ،ان يستولوا على السلطة بمأتين من المشاه المستجدين ،وبعدد مماثل من المظليين الجدد ،فمن باب اولى أن يكلل تخطيط الحزب بالنجاح وهو الذى يجيد التخطيط والعمل السرى بأكثر من غيره من الافراد والجماعات ،وهو الذى ينتمى اليه ويتعاطف معه عدد من الضباط اكبر من اولئك الذين اغتالوا حكم الاحزاب .

وأما العامل الشخصى فقد كان الحرص على رد الاعتبار لذكائه ومقدرته على التحليل واستخلاص النتائج الصحيحة . فقد كان السبب الرئيس بل الوحيد الذى دعاه لدعوة العسكريين للانسحاب من عملية التحضير لانقلاب مايو قبل اسبوعين فقط من صبيحة الخامس والعشرين هو خوفه بل تيقنه من فشل المحاولة . وقد كان بعضنا قد واجهه قبل اسبوع من يوم الانقلاب واتهمه بالمبالغة فى تقدير قوة الاحزاب المؤتلفة والطوائف التى تقف من ورائها وكادوا أن يصفوه بالجبن ويتهموه بالخور وعدم التماسك الفعلى امام الصعاب والأزمات.

وقد برهن عبد الخالق للسوفيت عمليا فى اول يوليو من عام ١٩٧١ على المقدرة التنظيمية والتآمرية الفائقة لحزبه وخاصة العسكريين من بين اعضائه وذلك بنجاح عملية تهريبه من داخل احدى معسكرات الجيش الذى كان هو رهين محبسها ،وتأمين اختفائه حيث ظل يقيم فى داخل الثكنات الرئيسية للحرس الجمهورى بل وفى منزل قائده الى حين استيلائه على السلطة بعد ذلك ببضعة اسابيع .

وبالطبع فقد سارع الروس كدأبهم عند فشل أى مهمة تآمرية يكونون هم طرفا فيها ،الى دفع تهمة مساندة الانقلاب والتملص حتى من مجرد المعرفة المسبقة بالتخطيط له .

ولكن ثمة شواهد كثيرة تفضح أمرهم وتدحض افتراءهم الكذب ولعل ابرزها رفضهم ،قبل أربعة ايام فقط من وقوع الانقلاب ،

اعطاء تأشيرات دخول للاتحاد السوفيتى لوفد عسكرى ومدنى على مستوى عال برئاسة عضو مجلس قيادة الثورة الذى كان يشغل منصب وزير الدفاع وعضوية اثنين من الوزراء وثلاثة من كبار ضباط القوات المسلحة رغم أن زيارة الوفد كان متفقا عليها بين سلطات حكومة السودان والروس قبل ذلك ببضعة أشهر ،ورغم ان السفارة السوفيتية فى الخرطوم قد أكدت أن سفارتهم بلندن قد زودت بتوجيهات موسكو لاستخراج التأشيرات المطلوبة للوفد عند وصوله الى بريطانيا التى كان مقررا أن يجرى فيها وزير الدفاع السودانى محادثات سريعة مع نظيره البريطانى . ولم يفلح تدخل الرئيس نميرى فى زحزحة الروس عن موقفهم الغريب وكان الرئيس قد استدعى السفير السوفيتى بالخرطوم واخطره برفض السفارة السوفيتية فى لندن السماح للوفد بزيارة روسيا المتفق عليها وطلب منه دون جدوى تدارك الأمر .

ومن تلك الشواهد أيضا رفض الرفيق بدجورنى رئيس مجلس الدولة السوفيتى تلبية الدعوة لحضور احتفالات الذكرى الثانية لثورة مايو التى كان قد سبق له الوعد بتلبيتها ورغم انه كان بالقاهرة قريبا منا أيام الاحتفالات بتلك الذكرى ،وبالرغم من الحاح السادات عليه بزيارة الخرطوم . ولم يكتف بدجورنى بعدم تلبية الدعوة بل لم يتفضل بالاعتذار ولا حتى بالشكر على تقديمها .

وثمة دليل ثالث وهو سلوك بعض رجال السفارة السوفيتية فى الخرطوم فى فترة الانقلاب وخاصة السكرتير الاول للسفارة الرفيق اورلوف الذى كان يعد ويتوعد موظفى الخارجية السودانية ويتصرف وكأنما هو راعى الانقلاب وكأنما هو القيم عليه .

ثم كانت هناك اعترافات مراسل وكالة انباء تاس بالخرطوم الرفيق ايليا زير كفيلوف التى أدلى بها لصحيفة التايمز اللندنية فى ابريل من عام ١٩٨٠ . وكان الرجل قد عاصر وقوع انقلاب الشيوعيين بالخرطوم والتى ذكر فيها أنه كان على علم بما يدبر فى الخفاء للاطاحة بحكومة مايو وذلك بوصفه ضابطا " بالكى جى بى يتخذ من مراسلته لوكالة تاس سترا ورد١٦ . وقد أكد ان الحزب الشيوعى السوفيتى وحكومته كانا يقفان من وراء الحماقة الفاشلة ويحرصان على انجاحها .

وكما حاول الروس انكار أية صلة لهم بالانقلاب الفاشل ،كان

كذلك موقف بعض قادة الحزب السودانى الذين حاولوا جاهدين الغاء تبعة الغدر الآثم على رفاقهم العسكريين حيث زعموا ان العملية تمت كلها دون اذن اللجنة المركزية للحزب بل دون علمها . كما حاولوا عبثا آن يتنصلوا من معرة مذبحه دار الضيافة وتحميل ،وزرها لضباط آخرين متقاعدين زعموا انهم كانوا يدبرون ،بدورهم ، لانقلاب آخر .

وقد شنت الحكومة السوفيتية وجزبها الشيوعى ومن ورائهما الاحزاب الشيوعية الموالية حملة مضرية ضد الأحكام التى صدرت بحق بعض زعماء حركة يوليو . ونجحت الحملة الدعائية الواسعة فى صرف الأنظار عن جريمة دار الضيافة وقد كان من أسباب نجاحهاالتجاوزات التى حدثت اثناء المحاكمات وعدم الالتزام بقواعد الاجراءات الجنائية .وكذلك كان لضعف وغفلة أجهزة اعلام حكومة السودانأثرها فى تحقيق أهداف ومآرب الحملة العاتية .

ولعل أبلغ دليل على ذلك الضعف الستار الكثيف الذى أسدل على أحداث دار الضيافة والتى هى وبحق جريمة العصر التى لاتضاهيهابشاعة الا مذبحتى شاتيلا وصبرا .

ولكن مهما كان من أمر تنصل الروس ورفاقهم بالسودان فان ما حدث فى الثلاثة ايام التى كانت هى عمر الانقلاب الذى قام بهالحزب الشيوعى السودانى بموافقة بل ومباركة الحزب الشيوعى السوفيتى انما هو سبة فى جبين الحركة الشيوعية السودانية التى لم ترقب فينا إلا ولاذمة وفى جبين الحركة الشيوعية العالمية التى تنكرت للأفضال التى حباها بها مايو وطوق بها جيدها غفلة منه ،وحسن ظن جاهليا .

وليت مايو يستوعب الدرس ويستفيد من تجربته السابقة المرة وليته يتنبه للمخاطر التى تحيط بالبلاد ويتحلى بالحكمة واليقظه ، فان السوفيت أهل ضغينة واصحاب وجعة . ولن يسكتوا على الهزيمة التى حاقت بهم على يدى دولة ،كالسودان ،صغرى . وسيعملون جاهدين لاعادة الكرّة . وان تيسرت لهم الرجعة ،فلنجدن منهم ،هذه المرة ،غلظة ما بعدها غلظة ،وقسوة لاتضاهيها قسوة .

ولانقول ذلك من باب النصح والخطابه ،ولا على سبيل الوعظ والاثارة ، وانما تحذيرا من نتائج الاستهانة بمكر الروس ،ومن مغبة السذاجة السياسية التى قد تطيح فى النهاية بالعروش والرؤس . اذ هناك من

يزعم انه لم يعد ثمة خطر من السوفيت بعد ان استعادت أمريكا لأراضيها السياسية فى الشرق العربى وتكفلت بتسوية القضية الفلسطينية من غير طريق الحرب ،وبعد ان اقتنع العرب أنه مامن سبيل لقهر اسرائيل وانتزاع حقوقهم المغتصبه بقوة السلاح الذى كان هو مدخل الروس للمنطقة ،وسبب نفوذهم الذى دام لما يقارب الخمسة عشر سنة ، وبعد أن أصبحت التنمية موضوع الاهتمام الاول بالنسبة للعرب الذين اتجهوا بأبصارهم نحو الغرب الذى هو بتقنيته وخبرته اكثر قدرة على تحقيق الأمل المرتقب .

ونسى هؤلاء التائهون ،أن للاتحاد السوفيتى أطماعا فى هذه المنطقة تفوق أطماعه فى أى مكان آخر ،حيث ان الارض العربية تبطن النفط الوافر ،وتحتل موقعا استراتيجيا خطيرا .فهى قريبة من حدوده الجنوبية ،ومنها ماتطل سواحله على المياه الدافئة فى المحيط الهندى والخليج العربى الفارسى وفى البحرين الابيض والاحمر والتى يمكن لمن يتحكم فيها ان يسيطر على حركة الملاحة سيطرة كاملة .

كما نسوا ايضا ان هناك من بين حكومات العالم الثالث من ستضطر مكرهة ،للتحول الى الدول الشيوعية رغم معرفتها بالمخاطر التى تصاحب ذلك التحول ،ان عجزت عن نيل المساعدات الامريكية الضرورية لبقائها .

ثم هناك الاحزاب الشيوعية المحلية التى تستغل المصاعب الاقتصادية التى تجابه الدول النامية التى تطمس الحقائق حول الأزمات التى تثيرها مسائل التطور والطلق وتسعى جاهدة للأستيلاء على السلطة عنوة ومباشرة ،أو عن طريق تحريض شباب القوات المسلحة الذين يتوقون مخلصين لاستعجال التنميه والى الانضمام الى زمرة الدول المتقدمة .

ومما يزيد من خطورة الحقيقة الغائبة عن هولاء الغافلين ان الاتحاد السوفيتى أصبح أكثر منعة واكثر جرأة بل واكثر صفاقة وتبجحا ولؤما ... وما فعلته التى فعل بأفغانستان الا شاهدودليل على تجمع تلك الصفات المكتسبة .

وليت الاشقاء من جيراننا الافارقة يستفيدون من تجربتنا مع السوفيت ويتداركون أمرهم قبل ان يصيبهم ما أصابنا فيندمون كما ندمنا وكما ندم الكسعى من قبلنا ،علما بان الروس قد استفادوا

من تجاربهم المريرة فى مصر والسودان والصومال فاصبحوا أكثرمعرفة بعقلية شعوب المنطقة عما كانوا علية عندما اخرجوا من تلك البلاد تصحبهم اللعنة .

ولن يسمحوا لمأساتهم ان تتكرر مرة أخرى خاصة بعد ان ذاقوالذة الانتصار فى انجولا وبعد ان حققوا حلما كان يراودهم من قديم ، وهو وضع اقدامهم بأرض العزيزة اثيوبيا ،التى تتميز عن الكثير من البلاد الافريقية بثقلها السكانى وبثقلها السياسى وبالعراقة والاصالة وبموقعها الجغرافى فى القرن الافريقى .

ولن يكتفى الاتحاد السوفيتى بمستوى العلاقات القائمة الانبينه وبين اشقائنا المجاورين لنا ،ولن يهدأ له بال الا اذا رفرفت الرايات الحمراء بين ربوع البلاد قاصيها ودانيها والا اذا سيطر الرفاق المحليون على السلطة سيطرة تامة بمثل ماكانت عليه احلامهم فى السودان . حيث لم يكتفوا بوضعهم الممتاز الذى كانوا عليه قبل عملية يوليو الفاشلة رغم أنه كان لهم خبراء عسكريون حتى مستوى الكتيبة وخبراء اقتصاديون وفنيون وماليون يتدخلون فى كلصغيرة وكبيرة .

ولم يشفع لمايو عندهم انه بذل قصارى جهده الدبلوماسى واستغل ثقله السياسى لتحسين علاقات الدول الشيوعية ببعض الدول الافريقية وانه بادر بالاعتراف بالمانيا الشرقية . وكان وراء اعتراف تشاد وافريقيا الوسطى بها رغم تهديد المانيا الغربية بتطبيق الجزاءات التى نص عليها مبدا هو لشتاين الذى وضعته ليحكم علاقاتها مع كافة الدول التى تعترف بالدولة التى اقتطعت منكيانها واصلها .

ولم يكن السودان هو البلد الافريقى الوحيد الذى اغتال الروس صداقته ووده فقد كانت هناك تجربة الصومال الذى مكنهم من نفسه بأكثر مما فعل السودان والذى منحهم كل التسهيلات الحربية فى مياهه الاقليمية ،وكاد ان يسمح لهم باقامة قاعدة عسكرية بحرية على ساحله .

ولعل ثمة عاملا آخرا بجانب تعاظم قوة الروس ومنعتهم العسكرية أدى الى زيادة جرأتهم فى معاملاتهم الخارجية التى صارت أقرب للمغامرة منها الى السلوك الدولى المتحضر وهو اتساع نفوذ رجل

مثل كاسترو ودوره فى رسم السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى خاصة فيما يتعلق بافريقيا ،وقد كان هو الذى نصح بالتدخل الشيوعى فى افريقيا وقد نجحت سياسته . ولعل أبلغ دليل على دوره المتعاظم أنه استطاع أن يقصى بدجورنى عن السلطة رغم ان هذا كان أحد الاضلاع الثلاثة للترويكا الحاكمة فى روسيا وذلك لمعارضته للتدخل السوفيتى فى أفريقيا خوفا من تكرار تجربتهم المريرة فى السودان ومصر والصومال . وكان الرجلان قد اختلفا حول الأمر عندما تقابلا فى شرق افريقيا قبل مدة وجيزه من اقصاء الزعيم الروس عن السلطة .

لقد سقطت ورقة التوت التى كانت تستر عورة الرهيب ايفان ،فبدا فى بولندا وافغانستان ،ومن قبلهما فى الصومال والسودان على حقيقته مجردا من ثياب الطهر عريان ... ولكنه لن يعدم الرفاق والغربان الذين يحاولون مواراة سوأته ليبدو للعيان فى حله

•

ولله فى خلقة شئون ... ومن يعيش يرى
